



من كتبنا القصص

إشراف د. عبد الحميد إبراهيم

بنو أدر البنخلاء

نصوص ودراسة



د. محمد عبد الرحمن الربيع

دار الشروق

بنوادر البخلاء

نصوص ودراسة

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتم عام ١٩٦٨

القاهرة . ٨ شارع سيبيه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب. ٣٣٠ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب. : ٨١٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د. محمد عبد الرحمن الربيع

بنو واد البيضان نصوص ودراسة

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

- ١ -

إن الفرق بين بخيل الجاحظ وبخيل مولير ، يقربنا خطوة كبيرة من مفهوم النادرة العربية .

فالبخيل عند مولير يتعرض لأنواع شتى من الصراعات النفسية ، ويحلل المؤلف أعماق شخصيته ، ويصفها في مواقف ساخرة ، تتميز بالعنف ، الذى يصل إلى حدا التجريح .

أما الجاحظ فهو يهدف إلى المتعة والتسلية ، ولا يضع مشرطا حادا داخل شخصيته ، فيحللها ويمزقها ، إنه يكتفى بوضع شخصيته فى «مطبات» تحاول أن تثير الضحك ، وأن تعدل من سلوك الشخصية دون تهجريح أو قسوة ، ولكن بقدر من التعاطف والحنو ، يهدف إلى إضحاك المتفرج والمتفرج عليه معاً .

إن محفوظ النقاش (انظر رقم / ١١ من نصوص هذا الكتاب) هو صورة للبخيل عند الجاحظ ، الذى يدافع عن فلسفته ويحرص على

متاعه ، ولكن الجاحظ لا يجرح تلك الشخصية ، إنه يسخر منها سخرية خفيفة طريفة ، ويجعل الطرف الآخر يضحك من فلسفته ضحكا يشير النشاط والسرور على حد قوله ، ويتمنى أن يشاركه الجميع فى متعة الضحك والتسلية ، ويقول:

«ولو كان معى من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتى على الضحك أو لقضى علىّ ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب» .

- ٢ -

إن هذا الفرق بين طريقة عنيفة ، وأخرى حانية ، يعكس فلسفة حضارتين مختلفتين .

حضارة تؤمن بالعنف ، وبحل الإشكالات عن طريق الصراع . وأخرى متسامحة حتى مع المخطئين ، لا يهتمها التعذيب ولا التجريح ، ولكن يهتمها بالدرجة الأولى ، أن يعود الشارد إلى حظيرته ، ويجد «الجماعة» فى انتظاره ، تفسح له مكانا بينها ، وتدعوه إلى أن يشاركها «متعة الضحك» ، حتى لو كان هذا الضحك موجهاً إليه شخصياً ، فلا عداوة ولا نوايا خبيثة ، وكل شىء يجرى على سجيته .

وهنا خطأ الذين يقومون بعملية المقارنة ، بين صورة البخيل فى

الأدب العربى، وصورة البخيل فى الآداب الأوروبية، ظنا منهم أن هذه المقارنة، تدخل فى ميدان الأدب المقارن. فهنا صورة للبخيل تذكر بصورة أخرى لبخيل آخر، وكلا الصورتين تتعرضان لموضوع واحد، يثير السخرية أو الضحك.

إن هذه المقارنة تقف عند ظواهر الأشياء دون أن تتعمقها حقاً، إن الصورتين عن البخيل، ولكن شتان بين بخيل وبخيل، وشتان بين رؤية حضارية تختلف هنا عنها هناك، إن التحليل العميق، الذى يتجاوز ظواهر الأشياء، يجعلنا فى النهاية فى مواجهة صورتين متنافرتين، أكثر مما هما متقاربتان، تقومان على فكرة التأثير والتأثر، وهى الفكرة التى يقوم عليها عصب الدراسات فى الآداب المقارنة.

- ٣ -

نحن بذلك نقرب خطوة كبيرة من فهم «خصوصية» النادرة العربية، سواء فى الشكل أو فى المضمون.

فهى ذات شكل يتعامل مع الأشياء فى سطحها الظاهرى، ويعفوية لا تغوص ولا تحلل ولا تشعل الصراع، وهى أيضاً ذات مضمون متسامح يعكس رؤية تعانق حتى الشاردين وتدعوهم إلى لذة المشاركة، ومتعة العودة إلى الجماعة.

ولو حللنا النادرة الأولى، التى أوردها الدكتور الربيع فى هذا

الكتاب تحت عنوان «مؤتمر عام للبخلاء»، لاقتربنا إلى ميدان التطبيق العلمى، الذى يدعم من موقف هذا التجريد النظرى.

فالنادرة تتكون من مقدمة وموضوع وخاتمة.

أما المقدمة فهى تستلقت النظر إلى هذا المذهب للبخل، الذى شاع وأصبح الناس يتدارسون أمره فى المساجد، ويستمتعون بذكره، أما الخاتمة فهى تظهر على هيئة تعليق من صاحب الحمار، الذى يغرى بطلب المزيد من أخبار هذه الجماعة. التى انتشرت حتى بين الصالحين، أما الموضوع فهو يدور حول «معاذة العنبرية» النموذج للبخل الذكى، الذى يفيد من كل شىء حتى لو كان تافها مذموما.

وهذه البنية الفنية تتكون كما قلنا من ثلاثة أجزاء، كل جزء مستقل عن الآخر، وإن كان كل جزء يتعاون مع الآخر فى تنمية الهدف الكلى للنادرة. وهى تركيبة قد ارتضتها المقامات كنموذج للأدب الفصيح، وارتضتها أيضا رحلات السندباد كنموذج للأدب الشعبى، وهذه التركيبة، سواء كانت فى المقامات أو عند السندباد أو حتى فى النادرة العربية، إنما تعبر عن شكل أصيل، تضرب جذوره إلى رؤية تاريخية وإلى ترسبات من واقع المكان والبيئة، مما عرضنا بالتفصيل فى الجزء الرابع فى كتاب «الوسطية العربية» وفى فصل «الشكل الأصيل وتصالح الطرفين».

والنادرة تسخر من «معاذة» ولكن بتعاطف شديد. حقاً، إن صفة

البخل صفة مذمومة، ولكن الجاحظ يصور هذه الصفة بطريقة كاريكاتورية مضحكة، وكأنها الدعابة الخفيفة التي لا تخرج ولا تهدم، بل تأخذ بيد الشخصية وبحنو شديد، وتدفعها إلى تعديل سلوكها، والانتماء إلى الجماعة.

- ٤ -

وكل هذا يعنى أننا إزاء جنس أدبي خاص، يعكس رؤية حضارية، تفرض نفسها على مضامين هذا الجنس، وعلى بنيته الفنية.

وقد حاول الدكتور الربيع فى القسم الثانى من هذا الكتاب - وهو القسم الخاص بالدراسة - أن يحدد ملامح هذا الجنس الأدبى، وأن يعددها فى أمور أوصلها إلى ثمانية.

حقا إن الدكتور الربيع فى تحديد ملامح هذا الجنس، لم يتطرق للحديث عن الملامح الفنية، ربما اكتفاء بما ورد فى العدد الأول من هذه السلسلة، إذ تضمن فى القسم الثانى الخاص بالدراسة، حديثا عن ملامح هذا الجنس، سواء فى رؤيته الفلسفية، أو رؤيته الفنية.

ويمكن أن نطلق على هذا الجنس الأدبي، مصطلح «النادرة»، والنادرة - كما تقول المعاجم العربية - هي «الطرفة من القول». والطرفة - كما تقول المعاجم أيضا - هي كل مستحدث عجيب.

والمعاجم العربية تقف عند هذه الوظيفة العامة التي تشير إلى وجود جنس أدبي، يتوافر له كل ما يتوافر للأدب من طرافة وجدة وإثارة.

ونحن لا نطلب من المعاجم أكثر من ذلك، فهي معنية بالدلالات اللغوية، التي تقف عند المستوى الأول للغة ولا تتجاوزه إلا في إشارات قليلة، أما المستوى الثانى الذى يتطلب تحديد الخصائص الأدبية، فهو من مسئولية النقاد والمنظرين.

والتحدى الأكبر يتطلب من النقاد والمنظرين، أن يكشفوا عن خصائص هذا الجنس من داخله، وأن يتخلصوا من الكسل العقلى الذى يجعلهم يتسترون وراء عبارات غامضة وعامة، أو يقتبسون المصطلحات الأجنبية، التى نشأت فى كل جنس آخر، له فلسفته التاريخية وظروفه البيئية.

إن النادرة شىء يختلف تماما عن القصة القصيرة، إن لها مصطلحاتها الخاصة، التى تختلف عن العقدة والذروة والشخصية

المركبة والموقف المائل واللحظة التنويرية، وغير ذلك من مصطلحات عرفناها مع معرفة القصة القصيرة، فى شكلها الوافد من الغرب.

إن مصطلحات القصة القصيرة تخضع فى عمومها لروح الصراع، التى تسيطر على بنية الحضارة الأوروبية. أما النادرة فهى تتعامل مع الأشياء بخفة ودون الإيغال فى الصراع، وتلجأ من أجل ذلك إلى وسائل، قد تبدو فى الوهلة الأولى أنها ساذجة، من نتاج الشعوب البدائية، التى لا تستطيع التعمق فى التحليل أو فى الصراع. ولكن عند التدقيق نكتشف أن هذه الساذجة إنما هى ساذجة التلقائية والعفوية، التى تجذب أكثر مما تنفر، ونكتشف أيضا أن هذه العفوية قد تصل إلى الهدف بطريقة أسرع، وتعمل إلى عودة «الشاذ» إلى المجموع دون عنف ولا تجريح، لأنها تدرك بفطرتها أن العنف قد يجرُّ إلى العناد، وقد يرفع بالأمر كلها إلى التأزم وإلى الذروة، وإلى العقدة، وغير ذلك من مصطلحات عرفتھا القصة القصيرة، ونشأت فى ظلال عملية الصراع.

-٦-

وهدف هذه المجموعة «من تراثنا القصصى»، هو الكشف عن ملامح النادرة العربية، حتى تستقر بيننا على هيئة مصطلحات خاصة، كما استقرت فى صورتها الإبداعية، التى احتفظت بها المؤلفات القديمة.

وهنا تأتي أهمية هذا العدد، الذى يقدمه لنا الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع، وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت عنوان «نوادير البخلاء».

إن نوادر البخلاء تمثل رافدا «ضخما» من روافد النادرة العربية، وأضع كلمة «ضخما» بين علامتى تنصيص، لأن هذه النوادر عن البخلاء قد شاعت بين الناس أكثر من غيرها، ربما بسبب شخصية البخيل، وهى شخصية معقدة، تعكس ظروفها الاجتماعية ونفسية، وتثير حفيظة كثير من الناس، ويجد فيها الأديب مادة طريفة، خاصة إذا جمع بينها وبين شخصية أخرى، هى شخصية «الطفيلى» إذ يحدث صراع بين الشخصيتين، إحداها ترغب والأخرى تمنع، وتكون الفرصة مواتية لكى يخلق الأديب جوا من الصراع، يتميز بالطرافة والمتعة.

ومن هنا أصبح تقليدا أن تحوى الكتب القديمة، شيئا من نوادر البخلاء، جنبا إلى جنب مع القصائد الشعرية والنثر الفنى، فالمؤلف القديم يدرك بحاسته النقدية أن هذا الجنس الأدبى لا يقل فى أهميته عن الشعر والخطب والرسائل.

وقد تتبع الدكتور الربيع فى القسم الثانى من هذا الكتاب، حركة التأليف حول البخل والبخلاء منذ الأصمعى، وحتى الفقيه الحنبلى جمال الدين يوسف، ومرورا بالجاحظ، وابن قتيبة، وأبى حيان التوحيدي، وابن عبد ربه، والأبشيهى، وغيرهم كثيرون.

ولم يكتف الدكتور الربيع بذلك، بل قدم لنا فى القسم الأول نماذج من نواذر البخلاء، ضبطها، وشرح غامضها وأحالها إلى مصادرها الأصلية، وأخيرا حللها وأشار إلى دالاتها المضمونية والفنية فى نهاية الكتاب.

وبذلك أصبح القارئ أمام نماذج، معتمدة وأصلية، تمثل هذا الجنس الأدبى، وتدفعه إلى اكتشاف مصطلحاته الخاصة، وإلى إرساء دعائمه كفن مستقل، ليس هو القصة القصيرة، ولا المقالة النقدية، ولكنه فقط هو النادرة العربية.

القسم الأول النصوص المختارة

(١)

المؤتمر العام للبخلاء

قال أصحابنا من المسجدين^(١) : اجتمع ناسٌ في المسجد ممن يَنْتَحِلُ الاقتصادَ في النفقةِ والتَّشْمِيرَ للمالِ من أصحابِ الجَمْعِ والمنعِ^(٢) وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر، وكانوا إذا تَقَوَّا في حَلْفِهِمْ، تذاكروا هذا البابَ وتطَارَحُوهُ وتدارسوه التماساً لفائدة واستمتاعاً بذكره.

.....

ثم اندفع شيخٌ منهم فقال :

لم أرَ في وَضْعِ الأمورِ مَوَاضِعَهَا وفي تَوْفِيَّتِهَا غايةَ حقوقِها كمُعَاذَةِ العنبريةِ .

(١) المسجديون : طائفة من البخلاء يجتمعون في المساجد وبخاصة في مساجد البصرة .

(٢) أصحاب الجمع والمنع : اصطلاح أطلقه البخلاء على أنفسهم أى أنهم يجمعون المال ولا يفرطون فيه .

قالوا: وما شأنُ معاذة هذه؟

قال: أهدى إليها ابنُ عمِّ لها أضحية، فرأيتها كثيفة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها: مالك يا معاذة؟

قالت: أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لا منفعة فيه، ولكن المرء يعجز لامحالة، ولست أخاف من تضيع القليل إلا أنه يجرُّ تضيع الكثير.

أما القرن فالوجه فيه معروف، وهو أن يجعل منه كالخطاف^(١) ويسمر فى جذع من أجذاع السقف فيعلق عليه الزبل والكيران^(٢)، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك.

أما المصران فإنه لأوتار المندقة وبنات إلى ذلك أعظم حاجة. وأما قحف^(٣) الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد

(١) الخطاف: حديدة معقوفة يعلق عليها.

(٢) الزبل: جمع زبل وهو القفة، والجراب أو الوعاء. والكيران: جمع كور وهو الهرجل.

(٣) قحف الرأس: أعلى الدماغ من العظم. واللحيان: تشبة لحي وهو عظم الحنك الذى عليه الأسنان.

أن يُعْرَق^(١)، ثم يُطَبِّخُ فما ارتَفَعَ من الدَّسَمِ كان للمصباح وللإدام والعَصِيدَةِ^(٢) ولغير ذلك، ثم تُؤْخَذُ تلك العظامُ فيوقدُ بها فلم يَرِ الناسُ وقوداً قطُّ أَصْفَى ولا أَحْسَنَ لَهَباً منه، وإذا كانت كذلك فهي أسرعُ في القدرِ لقلَّةِ ما يُخَالِطُهَا من الدخان، وأما الإهابُ فالجلدُ نَفْسُهُ جَرَابٌ وللصوفِ وجوهٌ لا تُعَدُّ، وأما الفَرْتُ والبَعْرُ فَحَطَبٌ إذا جُفِّفَ عَجِيبٌ.

ثم قالت: بقي الآن علينا الانتفاعُ بالدم وقد علمتُ أن الله - عزَّ وجلَّ - لم يُحَرِّمَ من الدمِ المَسْفُوحَ إلَّا أَكَلَهُ وشُرْبَهُ وأنَّ له مواضعَ يجوزُ فيها ولا يُمنَعُ منها وإن أنا لم أَقَعْ على عِلْمِ ذلك حتى يوضع موضعُ الانتفاعِ به صار كَيْفَةً في قلبي وقذَى في عيني وهما لا يزالُ يَعاوِدُنِي.

قال: فلم ألبثُ أن رأيتها قد تَطَلَّعَتْ وتَبَسَّمتْ فقلتُ: ينبغي أن يكونَ قد انْفَتَحَ لك بابُ الرأى في الدمِ قالت: أجلُ ذَكَرْتُ أن عندى قُدُوراً شَامِيَةً جَدُداً وقد رَعَمُوا أنه ليس شيءٌ أدبَغَ ولا أَزِيدَ في قُوَّتِهَا من التَلْطِيطِ بالدمِ الحارِّ الدَّسَمِ وقد استرحتُ الآن إذ وَقَعَ كُلُّ شَيْءٍ مَوْقِعَهُ.

قال: ثم لقيتها بعد سِتَّةِ أَشْهُرٍ فقلتُ لها: كيفَ كان قَدِيدُكَ؟

(١) يعرق: أى بعد أن يؤكل ما عليه من اللحم.

(٢) العصيدة: طعام من الدقيق والسمن.

قالت: بأبى أنت لم يَجِئْ وقتُ القديدِ بعدُ، لنا فى الشحمِ والإليّةِ
والجنُوبِ والعظمِ المُعَرِّقِ وفى غير ذلك مَعاشٌ ولكلِ شىءٍ إِبَّانٌ.

فَقَبَضَ صاحبُ الحمارِ والماءِ العَذْبِ قَبْضَةً من حَصَى ثم ضَرَبَ بها
الأرضَ ثم قال: لا تَعْلَمُ أَنَّكَ من المُسْرِفينَ حتى تَسْمَعَ بأخبارِ
الصالحينَ

البخلاء للجاحظ ص ٢٧

(٢)

الكندى وتأجير العقارات

قال مَعْبُدٌ: نَزَلْنَا دارَ الكندى أَكْثَرَ من سَنَةٍ نُرَوِّجُ له الكِرَاءَ ونَقْضِي
له الخَوَائِجَ ونَقِي له بالشرطِ.

قلت: قد فَهِمْتُ تَرْوِيجَ الكِرَاءِ وَقَضَاءَ الخَوَائِجِ فما معنى الوفاء
بالشرطِ؟

قال: فى شَرْطِهِ على السَّكَّانِ أَنْ يَكُونَ له رَوْثُ الدَّابَّةِ، وَبَعْرُ الشَّاةِ
وَنَشْوَارُ^(١) العُلُوفَةِ، وَأَلَّا يَلْقُوا عَظْمًا ولا يُخْرِجُوا كُسَاحَةً^(٢)، وَأَنْ
يَكُونَ له نَوَى التَّمَرِ وَقُشُورُ الرِّمَّانِ، والغَرْفَةُ من كلِّ قَدْرِ تَطْبَخِ

(١) نشوار العلوقة: ما تبقى الدابة من العلف.

(٢) كساحة: ما يكسح من البيت أى يكنس وينظف

للحُبلى فى بيته، وكان فى ذلك يَتَنَزَّلُ عليهم فكانوا لِطِيبِهِ وإِفراطِ
بخله وحُسْنِ حديثه يَحْتَمِلُونَ ذلك .

قال معبد: فبينما أنا كذلك إذ قَدِمَ ابنُ عمِّ لى ومعه ابنٌ له وإذا
رُقْعَةٌ منه قد جاءتنى «إن كان مُقَامُ هذين القادمين ليلةً أو ليلتين
احْتَمَلْنَا ذلك وإن كان إِطْمَاعُ السُّكَّانِ فى الليلة الواحدة يَجُرُّ علينا
الطَّمَعُ فى الليالى الكثيرة» فكتبتُ إليه «ليس مُقَامُهُما عندنا إلاَّ شهرًا
أو نحوَه» فكتب إلىَّ «إنَّ دارَكَ بثلاثين درهماً وأنتم ستةٌ لكلِ رأسٍ
خمسةٌ فإذا قد رِدَّتْ رجلين فلا بد من زيادة خمسين فالدارُ عليك من
يومِكَ هذا بأربعين» فكتبتُ إليه «وما يَضُرُّكَ من مُقَامِهما وثِقَلُ
أبدانِهما على الأرضِ التى تحملُ الجِبَالَ، وثِقَلُ مؤنَّتيهما علىَّ دونَكَ؟
فَاكْتُبْ إلىَّ بعذرِكَ لأَعْرِفَهُ» ولم أَدِرْ أنى أَهْجُمُ على ما هَجَمْتُ وأَقَعُ
منه فيما وَقَعْتُ فكتب إلىَّ «الْخِصَالُ التى تدعو إلى ذلك كثيرةٌ وهى
قائمةٌ معروفةٌ، من ذلك سَرْعَةُ امْتِلاءِ الْبَالُوَةِ وما فى تَنْقِيَّتِها من شِدَّةِ
المُؤَنَةِ، ومن ذلك أن الأقدامَ إذا كَثُرَتْ كَثُرَ المشى على ظُهور السطوحِ
المُطَيَّنَةِ وعلى أرضِ البيوتِ المُجَصَّصَةِ والصعودُ على الدَرَجِ الكثيرةِ
فَيَنْقَشِعُ لذلك الطينُ وَيَنْقَلِعُ الجِصُّ .

وَيَنْكَسِرُ الْعَتَبُ مع انْتِشاءِ الأَجْذَاعِ لكثرةِ الوَطءِ وتكسرها لِقَرطِ
الثقلِ، وإذا كَثُرَ الدخولُ والخروجُ والفتحُ والإغلاقُ والإقفالُ وجذبُ

الْأَقْفَالُ تَهَشَّمَتِ الْأَبْوَابُ وَتَقَلَّعَتِ الرِّزَاتُ^(١)، وَإِذَا كَثُرَ الصَّبِيَانُ وَتَضَاعَفَ الْبَوْشُ^(٢) نَزَعَتْ مَسَامِيرُ الْأَبْوَابِ وَقُلَعَتْ كُلُّ ضَبَّةٍ^(٣) وَنَزَعَتْ كُلُّ رِزَّةٍ وَكُسِرَتْ كُلُّ حَوْزَةٍ وَحَفَرَ فِيهَا آبَارُ الزَّرْوِ^(٤) وَهَشَمُوا بَلَاطَهَا بِالْمَدَاحِيِّ، هَذَا مَعَ تَخْرِيبِ الْحَيْطَانِ بِالْأَوْتَادِ وَخَشَبِ الرُّفُوفِ، وَإِذَا كَثُرَ الْعِيَالُ وَالزُّوَارُ وَالضَّيْفَانُ وَالنُّدَمَاءُ احْتِيجَ مِنْ صَبِّ الْمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْحَبَّةِ الْقَاطِرَةِ^(٥) وَالْجِرَارِ الرَّاشِحَةِ إِلَى أَضْعَافِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، فَكَمْ مِنْ حَائِطٍ قَدْ تَاكَلَ أَسْفَلُهُ وَتَنَاقَرَ أَعْلَاهُ وَاسْتَرْخَى أَسَاسُهُ وَتَدَاعَى بُنْيَانُهُ مِنْ قَطْرِ حَبٍّ وَرَشْحِ جَرَّةٍ وَمِنْ فَضْلِ مَاءِ الْبُيْرِ وَمِنْ سُوءِ التَّدْبِيرِ.

وَعَلَى قَدْرِ كَثَرَتِهِمْ يَحْتَاجُونَ مِنَ الْخَبِيزِ وَالطَّبِيخِ وَمِنْ الْوَقُودِ وَالتَّسْخِينِ، وَالنَّارُ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ وَإِنَّمَا الدُّورُ حَطَبٌ لَهَا وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا مِنْ مَتَاعٍ فَهُوَ أَكْلٌ لَهَا فَكَمْ مِنْ حَرِيقٍ قَدْ أَتَى عَلَى أَصْلِ الْغَلَّةِ. فَكَلَّفْتُمْ أَهْلَهَا أَغْلَظَ النِّفْقَةِ وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ غَايَةِ الْعُسْرَةِ وَشِدَّةِ الْحَالِ وَرَبَّمَا تَعَدَّتْ تِلْكَ الْجَنَائِيَةُ إِلَى دُورِ الْجِيرَانِ وَإِلَى مُجَاوِرَةِ الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ حَيْثُ ذَرَبَ الدَّارَ وَقَدَّرَ بَلِيَّتَهُ وَمَقْدَارَ مُصِيبَتِهِ لَكَانَ عَسَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُحْتَمَلًا وَلَكِنَّهُمْ يَتَشَاءَمُونَ بِهِ وَلَا يَزَالُونَ يَسْتَقْفِلُونَ ذِكْرَهُ وَيُكْثِرُونَ مِنْ لَائِمَتِهِ وَتَعْنِيفِهِ».

البعلاء للجاحظ ص ٧١

(١) الرزات: جمع رزة، الحديد الموضوعة في الباب.

(٢) البوش: الجماعة والعيال. (٣) الضبة: حديدة يغلق بها الباب.

(٤) الزرو والمداحي: من ألعاب الأطفال في ذلك الوقت.

(٥) القاطرة والراشحة: أنواع من الجرار الفخارية تستخدم لتبريد الماء.

(٣)

بخل أهل طوس

عن أبي تغلب عبد الوهاب بن علي الحسن الملقب بالحمي قال: حدثنا القاضي أبو الفرج المعافى بن ركريا الجزيري قال: أنبأنا محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثنا عبد الرحمن - يعني ابن عبيد الله بن قريب ابن أخي الأصمعي - عن عمه قال: أَبْخَلُ أَهْلُ خِرَاسَانَ أَهْلُ طُوسٍ؛ وكانت قريةً من قُرَاهَا قد اشتهر أهلُها بالبُخْلِ، وكانوا لَا يَقْرُونَ ضَيْفًا فَبَلَغَ ذَلِكَ وَالِيًا مِنْ وَلَاتِهِمْ ففرض عليهم قِرَى الضيفِ وأمرهم أن يضربَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ وَتَدًا فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ وقال: إِذَا نَزَلَ الضَّيْفُ فَعَلَى أَيْ وَتَدَ عُلُقَ سَوَطًا أَوْ ثَوْبًا فَقَرَاهُ عَلَى صَاحِبِ الْوَتْدِ؛ وكان فيهم رَجُلٌ مُفْرِطٌ الْبُخْلِ فَعَمِدَ إِلَى عَوْدٍ صَلَبَ فَمَلَّسَهُ وَحَدَّاهُ وَصَيَّرَهُ فِي زَاوِيَةِ الْمَسْجِدِ وَوَتَّدَهُ مَنْصُوبًا لِيَزِلَّ عَنْهُ مَا عُلِقَ عَلَيْهِ. فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ضَيْفٌ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَتْدُ لَأَبْخَلَ الْقَوْمِ وَإِنَّمَا فَعَلَ هَذَا هَرَبًا مِنَ الضِّيَافَةِ فَعَمِدَ إِلَى عِمَامَتِهِ فَعَقَدَهَا عَلَى ذَلِكَ الْوَتْدِ عَقْدًا شَدِيدًا فَثَبَّتَتْ وَصَاحِبُ الْوَتْدِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ قَدْ سَقَطَ فِي يَدَيْهِ فَجَاءَ إِلَى امْرَأَتِهِ مُغْتَمًّا فَقَالَتْ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: الْبَلَاءُ الَّذِي كُنَّا نَحِيدُهُ عَنْهُ، قَدْ جَاءَ الضَّيْفُ فَقَعَلَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَتْ: لَيْسَ حِيلَةٌ إِلَّا الصَّبْرُ وَاسْتِعَانَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَجَعَلْتُ تُعْزِيهِ وَاجْتَمَعَ بَنَاتُهُ

وجيرانه مُتَحَزِّينَ لما حَلَّ به وكان أمرُ الضيفِ عندهم عظيمًا فعمد إلى شاة فذبحَها وإلى دَجَاجٍ فاشتواها وإلى جَفَنَةٍ فملاها ثريدًا ولحمًا فجعلتُ امرأتُه وبناتُه وجاراتُه يتطلعنَ من فُروجِ الأبوابِ والسطُوحِ إلى الضيفِ وأكلِه وجَعَلُوا يتبادرونَ: قد جاءَ الضيفُ، وَيَلْكُمُ، قد جاءَ الضيفُ. فتناولَ الضيفُ عرقًا من ذلك اللحمِ ورغيفًا فأكله ومسحَ يدهُ وحمدَ اللهَ عَزَّ وجلَّ وقالَ: ارفعوا باركَ اللهُ عليكم! فقال صاحبُ البيتِ: كُلْ يا عبدَ اللهِ واستوفِ عشاءَكَ فقد تَكَلَّفْنَا لكَ قالَ: قد اكتَفَيْتُ فقالَ: أهكذا أكلُ الضيفِ مثلُ أكلِ الناسِ لاغير؟ قالَ: نعم قالَ: ماظننتُ إلا أنكَ تأكلُ جميعَ ما عَمَلْنَاهُ وتَدْعُو بغيره فكان ذلكَ الرجلُ بعدَ ذلكَ لا يمرُّ به ضيفٌ إلا قرأه

البخلاء للخطيب البغدادى ص ١٨٤

(٤)

آكل الرءوس

وكان أبو عبد الرحمن الثوري يُعَجَّبُ بالرءوسِ وَيَحْمَدُهَا وَيَصِفُهَا وكان لا يأكل اللحمَ إلا يومَ أَضْحَى أو من بقية أَضْحِيَّتِهِ أو يكون في عُرْسٍ أو دَعْوَةٍ أو سُفْرَةٍ وكان سَمَّى الرأسِ عُرْسًا لما يجتمع فيه من الألوانِ الطيبةِ وكان يسميه مرَّةً الجَامِعَ ومرَّةً الكاملَ.

وكان يقولُ: الرأسُ شيءٌ واحدٌ وهو ذو ألوانٍ عجيبةٍ وطُغُومٍ

مُخْتَلَفَةٌ وَكُلُّ قَدْرٍ وَكُلُّ شِوَاءٍ فَلِإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَالرَّأْسُ فِيهِ الدِّمَاغُ
فَطَعْمُ الدِّمَاغِ عَلَى حِدَةٍ، وَفِيهِ الْعَيْنَانِ وَطَعْمُهُمَا شَيْءٌ عَلَى حِدَةٍ،
وَفِيهِ الشَّحْمَةُ الَّتِي بَيْنَ أَصْلِ الْأُذُنِ وَمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ وَطَعْمُهَا عَلَى حِدَةٍ؛
عَلَى أَنَّ هَذِهِ الشَّحْمَةَ خَاصَّةٌ أَطْيَبُ مِنَ الْمَخِّ وَأَنَعَمُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَدْسَمُ
مِنَ السَّلَاءِ^(١) وَفِي الرَّأْسِ اللِّسَانُ وَطَعْمُهُ شَيْءٌ عَلَى حِدَةٍ . . . وَالرَّأْسُ
سَيِّدُ الْبَدَنِ فِيهِ الدِّمَاغُ وَهُوَ مَعْدِنُ الْعَقْلِ وَمِنْهُ يَتَفَرَّقُ الْعَصَبُ الَّذِي فِيهِ
الْحِسُّ وَبِهِ قِوَامُ الْبَدَنِ، وَإِنَّمَا الْقَلْبُ بَابُ الْعَقْلِ كَمَا أَنَّ النَّفْسَ هِيَ
الْمُدْرِكَةُ وَالْعَيْنُ هِيَ بَابُ الْأَلْوَانِ وَالنَّفْسُ هِيَ السَّامِعَةُ الذَّاكِقَةُ وَإِنَّمَا
الْأَنْفُ وَالْأُذُنُ بَابَانِ وَلَوْلَا أَنَّ الْعَقْلَ فِي الرَّأْسِ لَمَا ذَهَبَ الْعَقْلُ مِنَ
الضَّرْبَةِ تُصِيبُهُ . . .

وَكَانَ لَا يَشْتَرَى الرَّأْسَ إِلَّا فِي زِيَادَةِ الشَّهْرِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ الدِّمَاغِ
وَكَانَ لَا يَشْتَرَى إِلَّا رَأْسَ فَتَى لَوْفَارَةِ الدِّمَاغِ . . .

وَكَانَ لَا يَشْتَرَى الرَّأْسَ إِلَّا يَوْمَ سَبْتٍ

وَأَمَّا اخْتِيَارُهُ شِرَاءَ الرَّءُوسِ يَوْمَ السَّبْتِ فَإِنَّ الْقَصَّابِينَ يَذْبَحُونَ يَوْمَ
الْجُمُعَةِ أَكْثَرَ فَتَكْثُرُ الرَّءُوسُ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى قَدْرِ الْفَضْلِ فِيمَا
يَذْبَحُونَ، وَلِأَنَّ الْعَوَامَّ وَالتَّجَارَ وَالصَّنَاعَ لَا يَقْرَمُونَ إِلَى أَكْلِ الرَّءُوسِ
يَوْمَ السَّبْتِ مَعَ قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِأَكْلِ اللَّحْمِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلِأَنَّ عَامَّتَهُمْ قَدْ

(١) السَّلَاءُ: السَّمْنُ.

بَقِيَتْ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ فَهِيَ تَمْنَعُهُ مِنَ الشَّهْوَةِ، وَلَأَنَّ النَّاسَ لَا يَكَادُونَ
يَجْمَعُونَ عَلَى خَوَانٍ وَاحِدٍ بَيْنَ الرُّءُوسِ وَاللِّحَمِ.

البخلاء للجاحظ ص ٩٥

وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة رواية.

عن الجاحظ ج ٣ ص ٢٢٢

(٥)

مخاطبة الدراهم

وحديث سَمِعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، رَعَمُوا أَنْ رَجُلًا قَدْ بَلَغَ فِي
الْبُخْلِ غَايَتَهُ وَصَارَ إِمَامًا، وَأَنَّهُ كَانَ إِذَا صَارَ فِي يَدِهِ الدَّرْهَمُ خَاطَبَهُ
وَنَاجَاهُ وَفَدَّاهُ وَاسْتَبْطَأَهُ، وَكَانَ مِمَّا يَقُولُ لَهُ: كَمْ مِنْ أَرْضٍ قَدْ قَطَعْتَ
وَكَمْ مِنْ كَيْسٍ قَدْ فَارَقْتَ وَكَمْ مِنْ خَامِلٍ رَفَعْتَ وَمِنْ رَفِيعٍ قَدْ
أَخْمَلْتَ، لَكَ عِنْدِي أَلَا تَعْرِى وَلَا تَضْحَى.

ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي كَيْسِهِ وَيَقُولُ لَهُ: اسْكُنْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ فِي مَكَانٍ لَا
تُهَانُ وَلَا تُذَلُّ وَلَا تُزَعَّجُ مِنْهُ. وَأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ دَرَاهِمًا قَطُّ فَأَخْرَجَهُ
وَأَنَّ أَهْلَهُ أَحْلَوْا عَلَيْهِ فِي شَهْوَةٍ وَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ فِي إِنْفَاقِ دَرَاهِمٍ فَدَافَعَهُمْ
مَا أَمَكْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ حَمَلَ دَرَاهِمًا فَقَطَّ فَيَسْنَاهُ ذَاهِبٌ إِذْ رَأَى حَوَاءً قَدْ
أَرْسَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَفْعَى لِدَرَاهِمٍ يَأْخُذُهُ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: أَتَلَفْتُ شَيْئًا تُبْذَلُ

فيه النفسُ بأكلةٍ أو شربةٍ، والله ما هذا إلا مَوْعِظَةٌ لى من الله، فرجع إلى أهله وردَّ الدرهم إلى كيسه، فكان أهله منه فى بلاءٍ وكانوا يَتَمَنُّونَ موته والخلاصَ منه بالموت والحياة بدونه.

فلما ماتَ وظنوا أنهم قد استراحوا منه قَدِمَ ابنُه فاستولى على ماله وداره ثم قال: ما كان آدمُ أبى؟ فإن أكثرَ الفسادِ إنما يكون فى الإدام. قالوا: كان يَتَأَدَّمُ بِجُبَّةٍ عنده.

قال: أرونيها، فإذا فيها حَزٌّ كالجدول من أثرِ مَسْحِ اللَّقْمَةِ. قال: ما هذه الحَزَّةُ؟

قالوا: كان لا يَقْطَعُ الجَبْنَ وإنما كان يَمَسَحُ على ظَهْرِهِ؛ فَيَحْفِرُ كما تَرى.

قال: فهذا أَهْلَكَنى، وبهذا أَقْعَدَنى هذا المَقْعَدُ. لو علمت ذلك ما صِلْتُ عليه.

قالوا: فأنت كيفَ تريدُ أن تَصْنَعَ؟

قال: أَضَعُها من بعيدٍ فأشيرُ إليها باللُقْمَةِ.

البخلاء للجاحظ ص ١١٩

والقصة فى نهاية الأرب للنويرى مختصرة ج ٣ ص ٣٠٣ وكذا فى نثر الدر

للأبى ج ٣ ص ٢٨٧

(٦)

طعام بسلام

وبينما الشيخُ الخراسانيُّ يأْكُلُ في بَعْضِ المواضعِ إذ مرَّ به رجلٌ
فسلمَ عليه، فردَّ السلامَ، ثم قال: هَلُمَّ عافاك اللهُ، فلما نظَرَ إلى
الرجلِ قد انثنى راجعاً يريد أن يطْفُرَ^(١) الجدولَ أو يُعدِّيَ النهرَ.

قال له: مَكَانَكَ فَإِنَّ الْعَجَلَةَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

فوقفَ الرجلُ، فأقبلَ عليه الخراسانيُّ وقال: تريدُ ماذا؟

قال: أريدُ أن أَتَغَدَّى.

قال: وَلِمَ ذَلِكَ؟ وكيفَ طَمَعْتَ في هذا؟ ومنَ أَباحَ لك مَالِي؟

قال الرجلُ: أوكَيْسَ قَدْ دَعَوْتَنِي؟!

قال: ويلكَ لو ظننتَ أنك هكذا أحْمَقُ ما رَدَدْتُ عليك السلامَ
الآيِينَ^(٢) فيما نحنُ فيه أن تكونَ إذا كنتُ أنا الجالسَ وأنتَ المارُّ أن
تَبْدَأَ أنتَ فَتُسَلِّمَ، فأقولُ أنا حينئذٍ مُجيباً لك: وعليكم السلامُ.

فإن كنتَ لا آكلُ شيئاً، سَكَتُ أنا وسَكَتَ أنتَ ومَضَيْتَ أنتَ

(١) يطفر الجدول: أى يعدى من ضفة إلى أخرى.

(٢) الآيين: العادة والقانون والنظام كلمة فارسية.

وَقَعَدْتُ أَنَا عَلَى حَالِي . وَإِنْ كُنْتُ أَكُلُ فَهَاهُنَا آيِينَ آخِرُ ، هُوَ أَنْ أَبْدَأُ
أَنَا فَأَقُولَ : هَلَمْ ، وَتَجِيبُ أَنْتَ فَتَقُولَ : هَنِئْنَا ، فَيَكُونُ كَلَامٌ بِكَلَامٍ ؛
فَأَمَّا كَلَامٌ بِفَعَالٍ وَقَوْلٌ بِأَكْلٍ فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ وَهَذَا يُخْرِجُ عَلَيْنَا
فَضْلًا كَبِيرًا .

قال : فَوَرَدَ عَلَى الرَّجُلِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ .

فَشْهَرَ بِذَلِكَ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَقِيلَ لَهُ : قَدْ أُعْفِينَا مِنَ السَّلَامِ وَمِنْ
تَكْلُفِ الرَّدِّ . قَالَ : مَا بِيَ إِلَى ذَلِكَ حَاجَةٌ إِنَّمَا هُوَ أَنْ أُعْفِيَ أَنَا نَفْسِي
مِنْ هَلَمْ وَقَدْ اسْتَقَامَ الْأَمْرُ .

البخلاء للجاحظ ص ٢٠

(٧)

تَوَارِثُ الطَّبَاعِ وَالْعَادَاتِ

وَحَكَى بَعْضُهُمْ قَالَ : كُنْتُ فِي سَفَرٍ فَضَلَلْتُ الطَّرِيقَ ، فَرَأَيْتُ بَيْتًا فِي
الْفَلَاةِ فَأَتَيْتُهُ ، فَإِذَا بِهِ أَعْرَابِيَّةٌ ، فَلَمَّا رَأَتْنِي قَالَتْ : مَنْ تَكُونُ ؟ قُلْتُ :
ضَيْفٌ . قَالَتْ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا بِالضَيْفِ أَنْزِلْ عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ، قَالَ :
فَنَزَلْتُ فَقَدَّمْتُ لِي طَعَامًا ؛ فَأَكَلْتُ ، وَمَاءً ؛ فَشَرِبْتُ . فَبَيْنَمَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ
إِذْ أَقْبَلَ صَاحِبُ الْبَيْتِ فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَتْ ضَيْفٌ . فَقَالَ : لَا أَهْلًا وَلَا
مَرْحَبًا مَالَنَا وَلِلضَيْفِ فَلَمَّا سَمِعَتْ كَلَامَهُ رَكِبَتْ مِنْ سَاعَتِي وَسِرْتُ .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ رَأَيْتُ بَيْتًا فِي الْفَلَاةِ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا فِيهِ أَعْرَابِيَّةٌ

فلما رَأَتْني قالت: من تكون؟ قلت: ضيفٌ قالت: لا أهلاً ولا مَرْحَباً بالضيفِ مالناً وللضيفِ، فبينما هي تُكَلِّمُنِي إِذْ أَقْبَلَ صَاحِبُ الْبَيْتِ. فلما رَأَى قال: مَنْ هَذَا. قالت: ضيفٌ قال: مَرْحَباً وأهلاً بالضيفِ، ثم أَتَى بِطَعَامٍ حَسَنٍ؛ فَأَكَلْتُ، وماء؛ فَشَرِبْتُ، فَتَذَكَّرْتُ مَا مَرَّ بِي الْأَمْسَ فَتَبَسَّمْتُ، فقال: مِمَّ تَبَسُّمُكَ؟ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَا اتَّفَقَ لِي مَعَ تِلْكَ الْأَعْرَابِيَّةِ وَبَعَلَّهَا وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ وَمِنْ زَوْجَتِهِ، فقال: لَا تَعْجَبُ إِنْ تِلْكَ الْأَعْرَابِيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا هِيَ أُخْتِي وَإِنْ بَعَلَّهَا أَخُو امْرَأَتِي هَذِهِ فَغَلَبَ عَلَيَّ كُلُّ طَبْعٍ أَهْلِهِ.

المستطرف للأبشيهي ج ١ ص ١٨٩

(٨)

استوثق من عدم الأكل بالعهود والأيمان

قال العسكريُّ:

كَانَ أَحْمَدُ بْنُ مَادُويَةَ الْأَهْوَازِيِّ مِنْ أَبْخَلٍ مَنْ رَأَيْتُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ، وَكَانَ يَحْتَبِسُنِي لِلْأَكْلِ فَأَجْلَسُ مَعَهُ عَلَى الطَّعَامِ وَلَا أَكُلُ كَثِيرَ شَيْءٍ، فَاحْتَبَسَنِي يَوْمًا وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ فَأَكَلُوا وَأَكَلْتُ، وَجَرِيتُ عَلَى عَادَتِي فِي التَّنْقِيرِ وَكَانَ الطَّعَامُ أُرْزَاقَ جَدِّي مَشْوَى وَلَوْنَيْنِ مِنْ أَطْرَافِهِ وَسَقَطَهُ، فَلَمَّا فَرَعْنَا مِنْ ذَلِكَ أَقْبَلَ غَلَامُهُ وَعَلَى يَدِهِ طَيْفُورِيَّةٌ^(١) فِيهَا

(١) طيفورية: صحن كبير أو صينية.

الجدى، فأقبل هو علينا فقال: أما أنا فقد شَبِعْتُ ولم يبق فيَّ فضلٌ فما تقولون أنتم؟ فقلت: أما أنا فقد شَبِعْتُ، فقال الجماعة كقولى قال: فنجعل الجدى لغد ونأكله مَبَرَّدًا فقلت: هذا هو الصواب، فقال: ما أظنكم إلا وفيكم فَضْلَةٌ للأكل وإنما قُلْتُمْ قَدْ شَبِعْتُمْ مَسَاعِدَةً لى فقلت: لا والله يا سيدى ما فىَّ فَضْلٌ، فقال للذى يلينى: ما تقول؟ فقال: ما فىَّ فَضْلٌ فقال: لو كُنْتَ شَبِعَانَ لحلفت كما حَلَفَ أبو عبد الله، فَحَلَفَ الرجلُ أنه شَبِعَانُ. فقال للآخر الذى إلى جانبه فَحَلَفَ فلم يَزَلْ يستقرئ واحداً، واحداً ويحلفُ أنه شَبِعَان. ومن لم يَحْلِفْ قال له: لو كُنْتَ شَبِعَانَ لحلفتَ فَيَحْلِفُ الرجلُ، فلما استوثقَ من جماعتنا بالأيمان وتلجَّ صدره أنه لا حيلة لأحد منا فى الأكل قال: أما أنا فقد تَبَّعَتْ نفسى أَكَلَ شَحْمِ كَلَاهُ حَارًّا فقلنا له: كُلْ هَنَّاكَ اللهُ فقال: يا غلام ضَعِ الطيفُورِيَّةَ فَتَرَكْتُ بين يديه فأكل أكثر الجدى وحده وأمرَ بِرَفْعِ بَاقِيهِ وحِفْظِهِ

البخلاء للخطيب البغدادي ص ١٤٣

(٩)

بُخْلُ أَهْلِ مَرُو

قال أصحابنا: يقول المَرُورِيُّ للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه تَغْدَيْتَ اليوم؟ فإن قال: نعم قال: لولا أنك تغديت لغديتُك

بَغْدَاءَ طَيِّبٍ، وَإِنْ قَالَ: لَا، قَالَ: لَوْ كُنْتَ تَغْدِيَتْ لَسَقَيْتُكَ خَمْسَةَ أَقْدَاحٍ فَلَا يَصِيرُ فِي يَدِهِ عَلَى الْوَجْهِينِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ..

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ رَشِيدٍ كُنْتُ عِنْدَ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ مَرَوْ وَصَبَى صَغِيرٌ لَهُ يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ إِمَّا عَاتِبًا وَإِمَّا مُمْتَحِنًا: أَطْعَمْنِي مِنْ خُبْزِكُمْ قَالَ: لَا تَرِيدُهُ هُوَ مَرٌّ، فَقُلْتُ: فَأَسْقِنِي مِنْ مَائِكُمْ قَالَ: لَا تَرِيدُهُ هُوَ مَالِحٌ.

قُلْتُ: هَاتِ لِي مِنْ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: لَا تَرِيدُهُ هُوَ كَذَا وَكَذَا إِلَى أَنْ عَدَدْتُ أَصْنَافًا كَثِيرَةً كُلُّ ذَلِكَ يَمْنَعُنِيهِ وَيَبْغِضُهُ إِلَيَّ، فَضَحَكَ أَبُوهُ وَقَالَ: مَا ذَنْبُنَا؟ هَذَا مِنْ عِلْمِهِ مَا تَسْمَعُ؟ يَعْنِي أَنَّ الْبُخْلَ طَبْعٌ فِيهِمْ وَفِي أَعْرَاقِهِمْ وَطَبِيتِهِمْ.

البخلاء للجاحظ ص ١٣

(١٠)

لَوْ خَرَجْتَ مِنْ جِلْدِكَ لَمْ أَعْرِفَكَ

وَمِنْ أَعَاجِيبِ أَهْلِ مَرَوْ مَا سَمِعْنَاهُ مِنْ مَشِيخَتِنَا عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَرَوْ كَانَ لَا يَزَالُ يَحْجُ وَيَتَجَرُّ وَيَنْزِلُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَيَكْرُمُهُ وَيَكْفِيهِ مُؤْنَتَهُ ثُمَّ كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ لِلَّذِي الْعِرَاقِيُّ: لَيْتَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ بِمَرَوْ حَتَّى أَكَاثُكَ لَقَدِيمِ إِحْسَانِكَ وَمَا تَجَدَّدَ لِي مِنَ الْبَرِّ فِي كُلِّ قَدَمَةٍ، فَأَمَّا هَهُنَا فَقَدْ أَغْنَاكَ اللَّهُ عَنِّي.

قال: فَعَرَضْتُ لذلِكَ العِراقِي بَعْدَ ذَهْرٍ طَوِيلٍ حَاجَةً فِي تِلْكَ النَاحِيَةِ فَكَانَ مِمَّا هَوَّنَ عَلَيْهِ مُكَابِدَةَ السَفَرِ وَوَحْشِيَّةَ الاِغْتِرَابِ مَكَانُ المَرْوَزِيِّ هُنَاكَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَضَى نَحْوَهُ فِي ثِيَابِ سَفَرِهِ وَفِي عِمَامَتِهِ وَقَلَنْسُوتِهِ وَكِسَائِهِ لِيَحِطَّ رَحْلُهُ عِنْدَهُ كَمَا يَصْنَعُ الرَّجُلُ بِثِقَتِهِ وَمَوْضِعِ أَنْسِهِ، فَلَمَّا وَجَدَهُ قَاعِدًا فِي أَصْحَابِهِ أَكْبَّ عَلَيْهِ وَعَانَقَهُ فَلَمْ يَرَهُ أَثْبَتَهُ وَلَا سَأَلَ بِهِ سُؤَالَ مَنْ رَأَاهُ قَطُّ. قَالَ العِراقِي فِي نَفْسِهِ: لَعَلَّ إِنكَارَهُ إِيَّايَ لِمَكَانِ القِنَاعِ فَرَمَى بِقِنَاعِهِ وَابْتَدَأَ مُسَاءَلَتَهُ فَوَجَدَهُ أَشَدَّ مَا كَانَ إِنكَارًا قَالَ: فَلَعَلَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ العِمَامَةِ فَتَزَعَّعَهَا ثُمَّ انْتَسَبَ وَجَدَّدَ مُسَاءَلَتَهُ فَوَجَدَهُ أَشَدَّ مَا كَانَ إِنكَارًا قَالَ: فَلَعَلَّهُ إِنَّمَا أَتَى مِنْ قَبْلِ القَلَنْسُوتِ وَعَلِمَ المَرْوَزِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ المُتَغَافِلُ وَالمُتَجَاهِلُ فَقَالَ: لَوْ خَرَجْتَ مِنْ جِلْدِكَ لَمْ أَعْرِفَكَ.

البخلاء للجاحظ ص ١٧

(١١)

محفوظ النقاش

صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرْتُ قُرْبَ مَنْزِلِهِ وَكَانَ مَنْزِلُهُ أَقْرَبَ إِلَى مَسْجِدِ الجامعِ مِنْ مَنْزِلِي، سَأَلَنِي أَنْ أُبَيِّتَ عِنْدَهُ وَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ فِي هَذَا المَطَرِ وَالبَرْدِ وَمَنْزِلِي مَنْزِلُكَ وَأَنْتَ فِي ظُلْمَةٍ وَلَيْسَ مَعَكَ نَارٌ وَعِنْدِي لَبَأٌ^(١) لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ وَتَمْرٌ

(١) لبأ. أول اللبن بعد الولادة.

نَاهِيكَ بِهِ جَوْدَةً لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ فَمِلْتُ مَعَهُ فَأَبْطَأَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَنِي
 بِجَامٍ لَبِيٍّ وَطَبَقٍ تَمَرٍ فَلَمَّا مَدَدْتُ قَالُ: يَا أَبَا عَثْمَانَ إِنَّهُ لَبِيٌّ وَغَلْظُهُ،
 وَهُوَ اللَّيْلُ وَرُكُودُهُ، ثُمَّ لَيْلَةٌ مَطَرٍ وَرَطُوبَةٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ قَدْ طَعَنْتَ فِي
 السِّنِّ وَلَمْ تَزَلْ تَشْكُو مِنَ الْفَالَجِ طَرَفًا، وَمَا زَالَ الْغَلِيلُ يُسْرِعُ إِلَيْكَ
 وَأَنْتَ فِي الْأَصْلِ لَسْتَ بِصَاحِبِ عَشَاءٍ فَإِنْ أَكَلْتَ اللَّبَاءَ وَلَمْ تُبَالِغْ كُنْتَ
 لَا آكَلًا وَلَا تَارِكًا وَحَرَّشْتَ طِبَاعَكَ ثُمَّ قَطَعْتَ الْأَكْلَ أَشْهَى مَا يَكُونُ
 إِلَيْكَ، وَإِنْ بَالِغْتَ بَيْنَنَا فِي لَيْلَةٍ سَوْءٍ مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِكَ وَلَمْ نَعِدْ لَكَ
 نِيْدًا وَلَا عَسَلًا، وَإِنَّمَا قُلْتُ هَذَا الْكَلَامَ لئَلَا تَقُولَ غَدًا: كَانَ وَكَانَ
 وَاللَّهِ قَدْ وَقَعَتْ بَيْنَ نَابِيِ الْأَسَدِ لَأَنِّي لَوْ لَمْ أَجِئْكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ لَكَ
 قُلْتُ: بَخْلٍ بِهِ وَبَدَأَ لَهُ فِيهِ، وَإِنْ جِئْتُ بِهِ وَلَمْ أُحْذِرْكَ وَلَمْ أُذَكِّرْكَ كُلَّ
 مَا عَلَيْكَ فِيهِ قُلْتُ: لَمْ يُشْفِقْ عَلَيَّ وَلَمْ يَنْصَحْ فَقَدْ بَرَنْتُ إِلَيْكَ مِنَ
 الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَإِنْ شِئْتَ فَأَكَلْتُ وَمَوْتُهُ وَإِنْ شِئْتَ فَبَعْضُ الْإِحْتِمَالِ
 وَنَوْمٌ عَلَى سَلَامَةٍ.

فَمَا ضَحَكَتُ قَطُّ كَضَحَكِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَلَقَدْ أَكَلْتُهُ جَمِيعًا فَمَا
 هَضَمَهُ إِلَّا الضَّحِكُ وَالنَّشَاطُ وَالسَّرُورُ فِيمَا أَظُنُّ وَلَوْ كَانَ مَعِيَ مِنْ
 يَفْهَمُ طِيبَ مَا تَكَلَّمُ بِهِ لَأَتَى عَلَيَّ الضَّحِكُ أَوْ لَقَضَى عَلَيَّ وَلَكِنْ
 ضَحِكُ مَنْ كَانَ وَحْدَهُ لَا يَكُونُ عَلَى شَطْرِ مُشَارَكَةِ الْأَصْحَابِ.

البخلاء للجاحظ ص ١١١

(١٢)

فلسفة البخل

وقلت للحزَامِي مرّةً: قد رَضِيتَ أَنْ يُقَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بَخِيلٌ قَالَ: لَا
أَعْدَمَنِي اللَّهُ هَذَا الْأَسْمَ.

قلت: وكيف؟

قال: لَا يُقَالُ فُلَانٌ إِلَّا وَهُوَ ذُو مَالٍ فَسَلِّمْ إِلَى الْمَالِ وَادْعُنِي بِأَيِّ
اسْمٍ شِئْتَ قُلْتَ: وَلَا يُقَالُ فُلَانٌ سَخِيٌّ إِلَّا وَهُوَ ذُو مَالٍ فَقَدْ جَمَعَ
هَذَا الْأَسْمَ الْحَمْدَ وَالْمَالِ وَاسْمُ الْبَخْلِ يَجْمَعُ الْمَالَ وَالذَّمَّ، فَقَدْ اخْتَرْتَ
أَحْسَنَهُمَا وَأَوْضَعَهُمَا

قال: وبينهما فرقٌ.

قلت: فَهَا تَه.

قال: فِي قَوْلِهِمْ بَخِيلٌ تَثْبِيتٌ لِإِقَامَةٍ فِي مُلْكِهِ، وَفِي قَوْلِهِمْ سَخِيٌّ
إِخْبَارٌ عَنْ خُرُوجِ الْمَالِ مِنْ مُلْكِهِ، وَاسْمُ الْبَخِيلِ اسْمٌ فِيهِ حِفْظٌ وَذَمٌّ
وَاسْمُ السَّخِيِّ اسْمٌ فِيهِ تَضْيِيعٌ وَحَمْدٌ، وَالْمَالُ زَاهِرٌ نَافِعٌ مُكْرَمٌ لِأَهْلِهِ
مُفْرٍ وَالْحَمْدُ رِيحٌ وَسُخْرِيَّةٌ وَاسْتِمَاعُكَ لَهُ ضَعْفٌ وَفُسُؤَةٌ^(١) وَمَا أَقَلَّ

(١) فسولة. نذاله وخسة.

غَنَاءَ الْحَمْدِ - وَاللَّهُ - عَنْهُ إِذَا جَاعَ بَطْنُهُ وَعَرِيَ جِلْدُهُ وَضَاعَ عِيَالُهُ
وَشِمَّتَ بِهِ مَنْ كَانَ يَحْسُدُهُ .

البخلاء للجاحظ ص ٥٥

(١٣)

تحذير من بخل

حدثني أبو عبد الله محمد بن فتوح الأندلسي قال: كتب بعض
الأدباء إلى بعض إخوانه يُشاورُهُ في قَصْدِ بعضِ الرؤساءِ تأمِيلاً له
وَاسْتِدْعَاءً لِنَائِلِهِ وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالْبَخْلِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ. كَتَبْتُ إِلَيْكَ تَسْأَلُنِي عَنْ فُلَانٍ وَذَكَرْتَ أَنَّكَ هَمَمْتَ بِزِيَارَتِهِ
وَحَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ فَلَا تَفْعَلْ - أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ - فَإِنَّ حُسْنَ
الظَّنِّ بِهِ لَا يَقَعُ إِلَّا بِخُذْلَانٍ مِنَ اللَّهِ وَإِنْ الطَّمَعُ فِيمَا عِنْدَهُ لَا يَخْطُرُ
عَلَى الْقُلُوبِ إِلَّا مِنْ سُوءِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَالرَّجَاءُ لِمَا فِي يَدَيْهِ لَا
يَنْبَغِي إِلَّا بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ لِأَنَّهُ رَجُلٌ يَرَى التَّقْتِيرَ الَّذِي نَهَى
اللَّهُ عَنْهُ هُوَ التَّبْذِيرُ الَّذِي يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، وَأَنْ الْاِقْتِصَادَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
هُوَ الْإِسْرَافُ الَّذِي يَعَذَّبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَسْتَبْدِلُوا الْعَدَسَ
بِالْمُنِّ وَالْبَصَلَ بِالسَّلْوَى إِلَّا لِفَضْلِ أَحْلَامِهِمْ وَقَدِيمِ عِلْمِ تَوَارُثُوهُ عَنْ
آبَائِهِمْ، وَأَنَّ الضِّيَافَةَ مَدْفُوعَةٌ وَالْهَبَّةُ مَكْرُوهَةٌ وَأَنَّ الصَّدَقَةَ مَنْسُوخَةٌ
وَأَنَّ التَّوَسُّعَ ضَلَالَةٌ وَالْجُودَ فِسْقٌ وَالسَّخَاءَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . . .

وَهَلْ يَخْشَى الْعِقَابَ إِلَّا عَلَى الْإِنْفَاقِ وَيَرْجُو الْعَفْوَ إِلَّا عَلَى
 الْإِمْسَاكِ وَيَعِدُ نَفْسَهُ بِالْفَقْرِ وَيَأْمُرُهَا بِالْبَخْلِ خِيفَةً أَنْ تَنْزِلَ بِهِ قَوَارِعُ
 الظَّالِمِينَ وَيَصِيْبُهُ مَا أَصَابَ الْأَوَّلِينَ . فَأَقِم - رَحِمَكَ اللَّهُ - بِمَكَانِكَ
 وَاصْبِرْ عَلَى عَضِّ زَمَانِكَ وَامْضِ عَلَى عُسْرَتِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُبَدِّلَ لَكَ
 خَيْرًا مِنْهُ رِكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا .

البخلاء لخطيب البغدادى ص ٩٩

(١٤)

حيلة بخيل

كَانَ زِيَادُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ وَالْيَا عَلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ فِيهِ بُخْلٌ
 وَجَفَاءٌ، فَأَهْدَى إِلَيْهِ كَاتِبٌ لَهُ سِلَالًا فِيهَا أَطْعَمَةٌ وَقَدْ تَنَوَّقَ فِيهَا فَوَافَتْهُ
 وَقَدْ تَغَدَّى فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالُوا: غَدَاءٌ بَعَثَهُ فُلَانُ الْكَاتِبِ فَغَضِبَ
 وَقَالَ: يَبْعَثُ أَحَدُهُمُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ - يَا خَيْثَمُ بْنُ مَالِكٍ يَرِيدُ
 صَاحِبَ شُرْطَتِهِ، أَدْعُ لِي أَهْلَ الصُّفَّةِ يَأْكُلُونَ هَذَا فَبَعَثَ خَيْثَمُ الْحَرَسَ
 يَدْعُونَهُمْ فَقَالَ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ بِالسِّلَالِ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ لَوْ
 أَمَرْتَ بِهَذِهِ السِّلَالِ تَفْتَحُ وَيُنْظَرُ مَا فِيهَا .

قال: اكشِفُوها؛ فإذا طعامٌ حسنٌ من دَجَاجٍ وَفِرَاجٍ وَجَدَاءٍ وَسَمَكٍ

وَأَخْبِصَةَ وَحَلَوَاءَ فَقَالَ: ارفعوا هذه السلالَ وجاء أهلُ الصُّفَةِ فَأُخْبِرَ
بِهِمْ فَأَمَرَ بِأَحْضَارِهِمْ وَقَالَ: يَا خَيْشُمُ اضْرِبْهُمْ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي
أَنَّهُمْ يَفْسُونُ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

نهاية الأرب للنويرى ج ٣ ص ٣٠٥

وانظر أيضا: العقد الفريد

لابن عبد ربه ج ٧ ص ١٧٢

ونثر الدرِّ للآبى ج ٣ ص ٢٩٤

(١٥)

لَا يَمْتَدُّ إِلَى أَمَلٍ أَمِلَ

ومن رؤساء أهلِ البُخْلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ وهو الذى قال: وَدَدْتُ
أَنْ عَشْرَةَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَعَشْرَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَشْرَةَ مِنَ الْخُطَبَاءِ وَعَشْرَةَ
مِنَ الْأَدْبَاءِ تَوَاطَّوْا عَلَى ذِمَّتِي وَاسْتَهَلُّوا بِشَتْمِي حَتَّى يُنْشَرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ
فِي الْأَفَاقِ حَتَّى لَا يَمْتَدَّ إِلَى أَمَلٍ أَمِلَ وَلَا يَنْبَسِطَ نَحْوِي رَجَاءُ رَاجٍ .

وقال له أصحابه: إِنَّمَا نَخْشَى أَنْ نَقْعُدَ عِنْدَكَ فَوْقَ مِقْدَارِ شَهْوَتِكَ
فَلَوْ جَعَلْتَ لَنَا عَلَامَةً نَعْرِفُ بِهَا وَقْتَ اسْتِحْسَانِكَ قِيَامَنَا .

قال: عَلَامَةُ ذَلِكَ أَنْ أَقُولَ: يَا غَلَامُ هَاتِ الْغَدَاءَ

العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٧ ص ١٦٩ .

(١٦)

البخيل وأولاده

قال رجلٌ من الأعرابِ لولده: اشترُوا لِي لَحْمًا. فاشتَرَوْهُ فَطَبَخَهُ
حتى تَهَرَّى وأكلَ منه حتى انْتَهَتْ نَفْسُهُ وَشُرِعَتْ إِلَيْهِ عُيُونٌ وَلَدَهُ
فقال: ما أنا بِمُطْعِمٍ أَحَدًا مِنْكُمْ إِلَّا مِنْ أَحْسَنَ وَصَفٍ أَكَلِهِ.

فقال الأكبرُ منهم: أَكُلُهُ يَا أَبَتِ حَتَّى لَا أَدَعَ لِدُرَّةٍ فِيهِ مَقِيلًا.
قال: لستَ بِصَاحِبِهِ.

فقال الآخر: أَكُلُهُ حَتَّى لَا يُدْرَى الْعَامِ هُوَ أَمْ لِعَامٍ أَوَّلٍ.
قال: لستَ بِصَاحِبِهِ.

فقال الأصغر: أَدُقُّهُ يَا أَبَتِ دَقًّا وَأَجْعَلُ إِدَامَهُ الْمُخَّ.
قال: أنتَ صَاحِبُهُ هُوَ لَكَ.

عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٣٥.

(١٧)

الطعام والسجن

مَرَّ مِسْكِينٌ بِأَبِي الْأَسْوَدِ لَيْلًا وَهُوَ يُنَادِي: أَنَا جَائِعٌ فَأَدْخِلْهُ وَأَطْعِمَهُ
حتى شَبِعَ ثُمَّ قَالَ لَهُ انصَرِفْ إِلَى أَهْلِكَ وَأَتْبِعْهُ غُلَامًا وَقَالَ لَهُ: إِنَّ

سَمِعْتَهُ يَسْأَلُ فَارْدُدَهُ إِلَى . فَلَمَّا جَاوَزَهُ الْمَسْكِينُ سَأَلَ كِعَادَتَهُ فَتَشَبَّثَ بِهِ
الْغَلَامُ وَرَدَّهُ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ فَقَالَ : أَلَمْ تَشْبِعْ ؟ فَقَالَ : بَلَى

قَالَ : فَمَا سُؤْأَلُكَ ؟ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَحُبِسَ فِي بَيْتٍ وَأُغْلِقَ عَلَيْهِ الْبَابُ
وَقَالَ : لَا تُرَوِّعْ مُسْلِمًا سَائِرَ اللَّيْلِ وَلَا تَكْذِبْ فَلَمَّا أَصْبَحَ خَلَّى سَبِيلَهُ
وَقَالَ : لَوْ أَطَعْنَا السُّؤَالَ صِرْنَا مِثْلَهُمْ .

وَسَمِعَ دَابَّةً تَعْتَلِفُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَالَ : إِنِّي لَأَرَاكَ تَسْهَرِينَ فِي
مَالِي وَالنَّاسُ نِيَامٌ وَاللَّهُ لَا تُصْبِحِينَ عِنْدِي وَبَاعَهَا .

الإمتاع والمؤانسة ج ٣ ص ٣٣

(١٨)

إِسْتَحْيَ فَأَكَلَ

ضَمَّ عَثْمَانُ بْنُ رَوَاحٍ السَّفَرُ وَرَفِيقًا لَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّفِيقُ : اِمْضِ إِلَى
السُّوقِ فَاشْتَرِ لَنَا لَحْمًا .

قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ .

قَالَ : فَمَضَى الرَّفِيقُ وَاشْتَرَى اللَّحْمَ .

ثُمَّ قَالَ لِعَثْمَانَ : قُمْ الْآنَ فَاطْبُخِ الْقِدْرَ .

قال: والله ما أقدرُ فطَبَخَهَا الرقيقُ.

ثم قال: قُمْ الْآنَ فَاتْرُدْ.

قال: والله إنني لأعجزُ عن ذلك فَتَرَدَّ الرقيقُ.

ثم قال: قُمْ الْآنَ فَكُلْ.

فقال: والله لقد استحييتُ من كثرةِ خلافي عليك ولولا ذلك ما فعلتُ.

الإمتاع والمؤانسة ج ٣ ص ٤٠.

(١٩)

أَمُوتْ وَلَا اتَّقِيَا

حدثنا نَاجِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَصْرِيُّ قَالَ: كَانَ عِنْدَنَا بِالْبَصْرَةِ رَجُلٌ مُيَسَّرٌ وَكَانَ بَخِيلًا عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى عِيَالِهِ فَدَعَاهُ بَعْضُ جِيرَانِهِ فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَبَاهِجَةً^(١) يَبِيضُ فَاكَلُ فَاكَثَرَ، وَجَعَلَ يَشْرَبُ الْمَاءَ فَانْتَفَخَ بَطْنُهُ وَنَزَلَ بِهِ الْكَرْبُ وَالْمَوْتُ فَجَعَلَ يَتَلَوَّى، فَلَمَّا أَجْهَدَهُ الْأَمْرُ وَخَافَ

(١) طباهجة: طعام من بيض وبصل ولحم.

الموتَ على نفسه بعثَ إلى جَارٍ له مُتَطَبِّبٌ فدخَلَ عليه فقال: ما حَالُكَ؟ قال: أَكَلْتُ طُبَاهِجَةً بَيَضَ وشَرَبْتُ مَاءً كَثِيرًا وقد نَزَلَ بِي الموتُ فقال: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ قُمْ فَتَقَيَّأْ مَا أَكَلْتَ وقد بَرِئْتَ.

فقال: هَاهُ أَتَقَيَّأُ طُبَاهِجَةً بَيَضَ؟ أَمُوتُ وَلَا أَتَقَيَّأُ طُبَاهِجَةً بَيَضَ أَبَدًا.

البخلاء للخطيب البغدادي ص ٧١.

(٢٠)

لَا تَمَسَّ الدَّرْهَمَ إِلَّا بِثُوبٍ

قال محمدُ بنُ أبي المعافَى: كان أبي متنحياً عن المدينة وكانت إلى جنبه مزرعةٌ فيها قِثَاءٌ وكنتُ صبيّاً قد ترعرعتُ فجاءني من جيراننا أقرانٌ لي وكلمتُ أبي لِيَهَبَ لي درهماً أشتري لهم به قِثَاءً فقال لي: أتعرفُ حالَ الدرهم؟ كان في حَجَرٍ في جَبَلٍ فَضْرِبَ بالمعاول حتى استُخْرِجَ ثم طُحِنَ، ثم أُدْخِلَ القُدُورَ وَصَبَّ عليه الماءُ وَجُمِعَ بالزُبُقِ، ثم أُدْخِلَ النارَ فَسُبِكَ، ثم أُخْرِجَ فَضْرِبَ، وَكُتِبَ في أَحَدِ شِقَيْهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وفي الآخرِ محمدٌ رسولُ اللَّهِ، ثم صيرَ إلى أميرِ المؤمنينَ فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ بَيْتِ مَالِهِ ووَكَّلَ به عُوَجُ القَلَانِسِ صُهَبَ

السبَّال، ثم وَهَبَهُ لَجَارِيَةٍ حَسَنَاءَ جَمِيلَةٍ، وَأَنْتَ وَاللَّهُ أَفْبَحُ مِنْ قِرْدٍ، أَوْ رَزَقَهُ رَجُلًا شَجَاعًا وَأَنْتَ وَاللَّهُ أَجْبَنُ مِنْ صَافِرٍ فَهَلْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَمَسَّ الدَّرْهَمَ إِلَّا بِثَوْبٍ.

نثر الدرّ للآبِي ج ٣ ص ٢٩٣

ونهاية الأرب للنويري ج ٣ ص ٣٠٢

(٢١)

فوائد الرعوس

كان مروانُ بنُ أبي حَفْصَةَ لَا يَأْكُلُ اللَّحْمَ بُخْلًا حَتَّى يَقْرَمَ^(١) إِلَيْهِ، فَإِذَا قَرِمَ أَرْسَلَ غَلَامَهُ فَاشْتَرَى لَهُ رَأْسًا فَأَكَلَهُ فَقِيلَ لَهُ: نَرَاكَ لَا تَأْكُلُ إِلَّا الرَّءُوسَ فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ فَلَمْ تَخْتَارْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ الرَّأْسُ أَعْرِفُ سِعْرَهُ فَأَمِنْ خِيَانَةِ الْغَلَامِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْبِنَنِي فِيهِ وَلَيْسَ بِلَحْمٍ يَطْبَخُهُ الْغَلَامُ، فَيَقْدِرُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، إِنْ مَسَّ عَيْنًا أَوْ أُذُنًا أَوْ خَدًا، وَقَفْتُ عَلَى ذَلِكَ، وَأَكُلُ مِنْهُ أَلْوَانًا أَكَلُ عَيْنَهُ لَوْنًا وَأُذُنَيْهِ لَوْنًا

(١) يقرم إليه . يشتهي اللحم بشدة .

وغلصمته^(١) لونا ودماغه لونا وأكفَى مؤونة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق.

البخلاء للخطيب البغدادي ص ٨١

والأغانى للأصبهاني ج ١٠ ص ٧٧

وانظر قصة مشابهة لذلك

في بخلاء الجاحظ ص ٩٥

- ٢٢ -

يَتَجَمَّلُ بِالْعِظَامِ أَمَامَ دَارِهِ

قال عمرو بن ميمون: مررتُ ببعضِ طُرُقِ الكوفة فإذا أنا بِرَجُلٍ يُخَاصِمُ جَاراً لَهُ فَقُلْتُ: مَا بِالْكُفَّاءِ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: إِنَّ صَدِيقًا لِي زَارَنِي وَاشْتَهَى عَلَيَّ رَأْسًا فَاشْتَرَيْتُهُ لَهُ وَتَغَدَيْتُنَا، فَأَخَذْتُ عِظَامَهُ فَوَضَعْتُهَا أَمَامَ دَارِي أَتَجَمَّلُ بِهَا عِنْدَ جِيرَانِي، فَجَاءَ هَذَا وَأَخَذَهَا وَوَضَعَهَا عَلَى بَابِ دَارِهِ يُوهِمُ النَّاسَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَكَلَ الرَّأْسَ.

العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٧ ص ٢٨٣

وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٨٣

وانظر أيضا نثر الدر للآبي ج ٣ ص ٢٨٢.

(١) الغلصمة: اللحم بين الرأس والعنق.

(٢٣)

يَأْكُلُ فِي مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ

كان بعضُ البخلاء يَأْكُلُ نَصْفَ اللَّيْلِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: يَبْرُدُ الْمَاءُ وَيَنْقَمِعُ الذَّبَابُ وَأَمِنْ فَجْأَةً الدَّاحِلِ وَصَرَخَةَ السَّائِلِ وَصِيْحَ الصَّبِيَّانِ.

نشر الدر للأبي ج ٣ ص ٢٨٥

وانظر نهاية الأرب للنويري ج ٣ ص ٣٢٨.

(٢٤)

يَقْلِبُ صَبْيَانَهُ وَهُمْ نِيَامُ

وقال بعضهم: بَتُّ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ الْمُوَسِّرِينَ، وَلَهُ صَبْيَانٌ نِيَامُ فَرَأَيْتُهُ فِي اللَّيْلِ يَقُومُ فَيَقْلِبُهُمْ مِنْ جَنْبٍ إِلَى جَنْبٍ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الصَّبْيَانُ يَأْكُلُونَ وَيَنَامُونَ عَلَى الْيَسَارِ فَيُمْرِيهُمُ الطَّعَامُ وَيَصْبِحُونَ جِيَاعًا، فَأَنَا أَقْلِبُهُمْ مِنَ الْيَسَارِ إِلَى الْيَمِينِ لئَلَّا يَنْهَظَ مَا أَكَلُوهُ سَرِيعًا.

نهاية الأرب للنويري ج ٣ ص ٣٠٥

وانظر: نشر الدار للأبي ج ٣ ص ٢٧٩.

(٢٥)

أَجْهَرُوا عَلَى الْجَرْحَى

ودخلتُ يوماً على عبد الله بن يحيى بن خالد والمائدة موضوعةً والقَوْمُ يَأْكُلُونَ، وقد رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ فَمَدَدْتُ يَدِي لِأَكْلٍ فَقَالَ: أَجْهَرُ عَلَى الْجَرْحَى وَلَا تَتَعَرَّضُ لِلْأَصْحَاءِ يَقُولُ: تَعَرَّضُ لِلدَّجَاجَةِ الَّتِي قَدْ نِيلَ مِنْهَا وَالْفَرْخَ الْمَأْخُوذَ مِنْهُ فَأَمَّا الصَّحِيحُ فَلَا تَتَعَرَّضُ لَهُ، هَذَا مَعْنَاهُ فِي الْجَرْحَى وَالْأَصْحَاءِ.

العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٧ ص ١٧٣

وانظر: عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٧٣

وأصل القصة في بخلاء الجاحظ ص ٣٧

(٢٦)

أَصْلَى رَكْعَتَيْنِ بَيْنَ لُقْمَةٍ وَأُخْرَى

قال بعضهم لبخيل: لِمَ لَا تَدْعُونِي يَوْمًا؟
قال: لَأَنَّكَ جَيِّدُ الْمَضْغِ سَرِيعُ الْبَلْعِ إِذَا أَكَلْتَ لُقْمَةً هَيَّأْتَ أُخْرَى.

قال: فَتُرِيدُ مِنِّي إِذَا أَكَلْتُ لُقْمَةً أَنْ أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَعُودَ إِلَى الثَّانِيَةِ؟

نشر الدر للآبي ج ٣ ص ٢٧٥.

(٢٧)

المُصْبِحُ

وَزَعَمَ أَصْحَابُنَا أَنَّ الْخُرَاسَانِيَّةَ تَرَفَّقُوا فِي مَنْزِلٍ وَصَبَرُوا عَنِ الْارْتِفَاقِ بِالْمُصْبَاحِ مَا أُمِكنَ الصَّبْرُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَنَاهَرُوا وَتَخَارَجُوا، وَأَبَى وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعْينَهُمْ وَأَنْ يَدْخُلَ فِي الْغُرْمِ مَعَهُمْ، فَكَانُوا إِذَا جَاءَ الْمُصْبِحُ شَدُّوا عَيْنَهُ بِمَنْدِيلٍ وَلَا يَزَالُ وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَنَامُوا وَيُطْفِئُوا الْمُصْبَاحَ فَإِذَا أَطْفِئُوهُ أَطْلَقُوا عَيْنِيهِ.

البخلاء للمجاحظ ص ١٤

وانظر نشر الدر للآبي ص ٢٨٢

(٢٨)

الوَحْدَةُ

قال أبو نواس: كَانَ مَعَنَا فِي السَّفِينَةِ - وَنَحْنُ نُرِيدُ بَغْدَادَ - رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَكَانَ مِنْ عُقْلَائِهِمْ وَفُقَهَائِهِمْ فَكَانَ يَأْكُلُ وَحْدَهُ فَقُلْتُ لَهُ: تَأْكُلُ وَحْدَكَ؟

قال: ليس علىّ في هذا الموضع مسألة، إنما المسألة على من أكلَ مع الجماعة لأن ذلك هو التَّكْلُفُ وأَكَلِي وَحْدِي هو الأَصْلُ وأَكَلِي مع غَيْرِي زِيَادَةٌ في الأَصْلِ.

البخلاء للجاحظ ص ١٩

(٢٩)

أغلق الباب وأتِ بالطعام

قال رجل من البخلاء لغلّامه:

هَاتِ الطَّعَامَ وَأَغْلِقِ البابَ.

فقال: هذا خطأ بل أغلق الباب وأتِ بالطعام.

قال: أَنْتَ حُرٌّ لِعِلْمِكَ بِالْحَزْمِ.

البخلاء للخطيب البغدادي ص ٨٤

وانظر نشر الدر للآبي ج ٣ ص ٢٨٨

(٣٠)

أصوم الاثنين والخميس

قال رجلٌ لـغلامٍ: بكم تعمل معي؟

قال: بطعامي.

قال له: أحسن قليلاً.

قال: فأصوم الاثنين والخميس.

نثر الدر للأبي ج ٣ ص ٢٨٣

(٣١)

أقصصة شعرية

وأفضلهم فيه وليس بذي فضلٍ	صديقٌ لنا من أبرع الناس في البخلِ
فَجِئْتُ كما يأتى إلى مثله مثلي	دَعَانِي كما يدعو الصديقُ صديقهُ
يرى أنه من بعضِ أعضائه أَكَلِي	فلما دَنَوْنَا للطعامِ رَأَيْتُهُ
وأعلمُ أن الغيظَ والشتَمَ من أَجَلِي	ويَغْتَاطُ أحياناً ويشتمُ عبدهُ
فيلحظُنِي شِزْراً فَأَعْبَثُ بالبقلِ	أُمدُّ يداً سِراً لأخذَ لُقْمَةً

إلى أن جنتُ كفى لِحَيْنِي جِنَايَةَ وذلك أنَّ الجُوعَ أَعْدَمَنِي عَقْلِي
وأَهْوَتْ يَمِينِي نَحْوَ رِجْلِي دَجَاجَةَ فَجُرْتُ كَمَا جَرَّتْ يَدِي رِجْلَهَا رِجْلِي
وَقَدَّمَ مِنْ بَعْدِ الطَّعَامِ حَلَاوَةً فَلَمْ أَسْتَطِعْ فِيهَا أَمْرٌ وَلَا أُحْلِي
فَلَوْ أَنَّنِي قَدْ كُنْتُ بَيْتٌ بِبَيْتِهِ رَبِحْتُ ثَوَابَ الصَّوْمِ مَعَ عَدَمِ الْأَكْلِ

البخلاء للخطيب البغدادي ص ١٧٨

وانظر: نهاية الأرب للنويري ج ٣ ص ٣١٣.

القسم الثانى الدراسة

(١)

البخل فى الكتاب والسنة

البخل من الصفات المذمومة القبيحة فى كل الشرائع والأديان
وعند كل الأمم فى مختلف العصور والأزمان .

فقد نهى القرآن الكريم عن البخل والشح وحث على الكرم
والجود والسخاء ، وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة تحذر من البخل
وتنفر منه وتصور البخيل فى أبشع صورة وأقبح مقال ، وما ذلك إلا
لأن البخيل ضعيف الإيمان بالله والاتكال عليه ، يُغلبُ سوء الظن
والخوف من الفقر على السماحة والرضا والقناعة والإيمان بالتكافل
الاجتماعى ، ولذلك فالبخيل منبوذ من الناس مذموم على ألسنتهم
ومهما جمع من المال وكثر فإن ذلك لا يزيد من قيمته الاجتماعية ولا
من تفاعله مع المجتمع وإحساسه بحال الفقراء المساكين المحتاجين إلى
البذل والعطاء .

(٢)

البخل فى التراث العربى

وقد حفل التراث العربى منذ العصر الجاهلى وعلى امتداد التاريخ
بالنصوص الشعرية والنثرية التى تهاجم البخل والبخلاء وترسم لهم

صوراً بشعة وتروى عن بخلهم وتقتيرهم العجائب والغرائب، وفي مقابل ذلك ترسم صورة مشرقة جميلة لأهل الكرم والبذل والعطاء.

وقد تعددت مجالات الحديث عن البخل والبخلاء فى الشعر والنثر وفى الشعر نجد باب الهجاء من أوسع أبواب الشعر العربى وأحفلها بالحديث عن البخل، لأن صفة البخل من أحقر الصفات وأكثرها دوراً على ألسنة شعراء الهجاء.

وفى باب المديح نجد الحديث عن الكرم فى مقابل البخل، وأحياناً يتطرق المادح إلى نفى صفة البخل عن الممدوح، وكذلك فى باب الرثاء يكثر الشعراء من نفى صفة البخل وإثبات صفة الكرم والجود للميت.

وفى باب الوصف نجد الشعراء قد تفننوا فى وصف البخلاء وتصويرهم فى أبشع صورة مما يؤدى إلى تنفير الناس من هذا الخلق الذميم، بل إن بعض الشعراء قد رسم للبخلاء صوراً ساخرة أقرب ما تكون إلى فن (الكاريكاتير) المعاصر.

وفى النثر العربى حديث واسع جميل عن البخل والبخلاء يتجلى ذلك فى الرسائل والمقامات والحكايات والمؤلفات..

فالتحذير من البخل مادة من مواد فن الرسائل الأدبية، وشخصية البخل ورسم حركاته وسكناته وحيله وشخصيته المتلهفة على المادة موجودة فى (فن المقامات) بشكل واضح جلى وبخاصة عند بديع الزمان والحريرى.

وفى باب (الحكايات) وأحاديث السمر نجد الحديث متشعباً عن
البخل والبخلاء، كما أن المؤلفات التى تحدثت عن البخل والبخلاء
كثيرة جداً فى التراث العربى سواء أكان ذلك ضمن أبواب الأدب
العامة أم عن طريق أفراد أبواب وفصول للحديث عن البخلاء أو
الحديث عن (الطعام) وآداب المؤاكلة .
كما أن هناك الكتب المفردة عن البخل والبخلاء .

(٣)

البخل فى الأدب العربى الحديث

ولم يتوقف الأدباء العرب عن الحديث عن البخل والبخلاء، بل
امتد ذلك إلى العصر الحديث، فنجد الشعراء المعاصرين يرسمون
صورة البخيل فى شعرهم، وربما ارتبطت صورته بصورة (المرابى)
ومصاصى دماء الفقراء، كما أن كتاب النثر الفنى قد استمروا فى
الحديث عن البخلاء وتصوير مظاهر بخلهم ومضاره .

وشاركت الفنون الأدبية الحديثة كالأقصوصة والقصة والمسرحية
والتمثيلية الإذاعية والتلفازية فى التحذير من البخل ورسم صورة أدبية
منفردة للبخيل .

(٤)

البخل فى الآداب العالمية

ويبدو أن صورة البخيل إنما هى نموذج إنسانى عام تحدثت عنه كل الآداب العالمية القديمة كاليونانية والرومانية، والآداب الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية مما يفتح مجالاً خصباً لدراسات أدبية مقارنة لصورة البخيل فى الأدب العربى وتلك الآداب العالمية، وأعتقد أن فى أدبنا العربى على امتداد عصوره وتنوع فنونه مادة أدبية عن البخل تضع الأدب العربى - عند المقارنة بالآداب العالمية الأخرى - فى مكانة رفيعة، ويكفى الأدب العربى فخراً فى هذا المجال كتاب (البخلاء) للجاحظ .

(٥)

عرض لأشهر المؤلفات فى البخل والبخلاء

ونعود إلى حركة التأليف عن البخل والبخلاء فى التراث العربى لنجدها قد بدأت بأحاديث وحكايات وروايات جمعها الأصمعى وأبو عبيدة وغيرهما من رواة الشعر والأخبار، ووردت مشتتة لكنها هى النواة الأولى لأخبار البخلاء وقصصهم .

ثم جاء أبو عثمان الجاحظ فألف كتابه العظيم (البخلاء) فكان فتحاً عظيماً في هذا الميدان، بل إن ما جاء بعده عجز عن مجاراته، بل التفوق عليه ونستطيع أن نقول إن التأليف عن البخلاء قد ولد متكاملأ في أحسن صورة وأعظم تعبير على يد الجاحظ في كتاب (البخلاء).

ثم جاء بعد الجاحظ مجموعة من المؤلفين العرب تحدثوا عن البخلاء ضمن الكتب الأدبية العامة، فابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) يفرد في كتابه (عيون الأخبار) باباً أو كما يسميه كتاباً (للطعام) وفيه حكايات وأحاديث وأشعار عن البخل والبخلاء، وكذلك يفعل أبو حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وابن عبد ربه الأندلسي حيث خص (أخبار البخلاء) بحديث طويل، وكذلك فعل أبو منصور الأبي (٤٢١ هـ) في كتابه الكبير (نثر الدر) وشهاب الدين النويري (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ) في كتابه الموسوعي (نهاية الأرب) والأبشيهي (٧٩٠ - ٨٥٠ هـ) في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف) وغير هؤلاء كثير بحيث لا يخلو كتاب من كتب الأدب العامة من حديث عن البخلاء.

ولا بد لنا من وقفة خاصة أمام من خص البخلاء بكتاب مستقل بعد الجاحظ وهنا نصل إلى الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) العالم المحدث المؤرخ صاحب الكتاب الموسوعي الكبير (تاريخ بغداد)

فنجده يؤلف كتاباً بعنوان (البخلاء) كما فعل الجاحظ، ويخصصه للحديث عن هذه الطائفة وقد قسمه إلى ستة أجزاء صغيرة أورد فيها الآيات والأحاديث والآثار التي وردت في ذم البخل والشح والدعوة إلى البذل والعطاء والكرم، ثم أورد أشعاراً كثيرة وحكايات وقصصاً متنوعة عن البخل والبخلاء.

والكتاب نفيس في بابه، وتأثره بالجاحظ واضح جلي، يتضح ذلك في إيراد عدد من القصص الواردة في كتاب البخلاء، بل وتصريحه بالنقل عن الجاحظ في مواضع مختلفة، وهذا التأثير لا يعنى التوافق التام فعقلية الرجلين مختلفة وأساليبها متباينة، فالجاحظ كتب كتابه بعقلية الأديب الفنان وكتب الإمام الخطيب البغدادي كتابه بعقلية العالم المحدث المؤرخ الثبت. وقد دعاني ذلك التشابه وذلك الاختلاف إلى كتابة بحث طويل عن الكتابين باسم (البخلاء بين الجاحظ والخطيب).

وجاء بعد الخطيب البغدادي عالم آخر ألف كتاباً عن البخل والكرم بعنوان (إتحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء) هو الفقيه الحنبلي جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصالحى الدمشقى (٩٠٩ هـ) وهو كتاب صغير لا يرقى إلى مستوى كتاب الخطيب البغدادي ولا إلى مستوى كتاب الجاحظ لكنه يضم أشعاراً وقصصاً وتحليلات لغوية.

(٦)

أسس اختيار النصوص

لا أريد أن أطيل فى الوقوف عند المؤلفات والمؤلفين والتاريخ للتأليف عن البخل ولا عند خصائص كل كتاب فى الموضوع وبخاصة بخلاء الجاحظ، الذى كتب عنه أكثر من كتاب ورسالة جامعية حتى لا يشغلنا ذلك عن قراءة النصوص الواردة فى القسم الأول من هذا الكتاب.

ولن نلتزم فى هذه القراءة بالضرورة بترتيب النصوص بل سننظر إليها باعتبارها نصوصاً متنوعة، لكنها متكاملة تعطى فى مجموعها صورة واضحة عن البخل.

وقبل القراءة النقدية لا بد من الإشارة إلى الأسس التى قام اختيار النصوص عليها ويمكن تلخيصها فيما يلى:

(أ) وجدت كمًّا هائلاً من النصوص التراثية عن البخل والبخلاء ولو أردت التوسع فى جمع النصوص لكان لى ذلك، و لكنّ القدر المتفق عليه لهذه السلسلة لا يسمح بذلك.

(ب) ركزنا فى الاختيار على القصص والحكايات وتركنا الحديث المباشر أو النكت القصيرة أو أساليب المؤلفين التقريرية فى ذم البخل.

(ج) اقتصرنا على النشر وتركنا الشعر الذى قيل فى البخلاء، وهو كم هائل ويحتاج إلى دراسة خاصة، واستثنينا من ذلك قطعة شعرية واحدة جعلناها خاتمة الاختيارات لأنها عبارة عن أقصوصة شعرية، وأسلوبها القصصى هو الذى جعلنا نختارها خلافاً للقاعدة.

(د) حاولنا التنويع فى مصادر الاختيار حتى نعطي للقارئ الكريم نماذج مختلفة من أساليب المؤلفين، وإن كان للجاحظ نصيب الأسد من تلك المختارات وهذا أمر طبعى، فمن يقرأ كتابات الجاحظ وكتابات غيره عن البخلاء لا بد أن ينحاز إلى كتابات الجاحظ لما فيها من إبداع وتصوير فنى رائع ولأن من كتب بعده فى هذا الموضوع إنما هم عيال عليه.

ومصادر اختيار النصوص هى:

- البخلاء للجاحظ.
- البخلاء للخطيب البغدادي.
- عيون الأخبار لابن قتيبة.
- العقد الفريد لابن عبد ربه.
- الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدي.
- الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني.

- نثر الدر للآبى .

- نهاية الأرب للنويرى .

- المستطرف للأبشيهى .

(هـ) بعض القصص والحكايات وردت فى أكثر من كتاب فأشرنا بإيجاز إلى بعض مظان القطعة المختارة وهذا ليس على سبيل الحصر .

(و) لم نتدخل فى النصوص بتعديل لكننا حذفنا بعض المقاطع من النصوص الطويلة وضعنا نقطاً دالة على مكان الحذف وهذا قليل جداً .

(ز) شرحنا بعض الكلمات التى تحتاج إلى شرح وتجنبنا الإطالة والإكثار من الكلمات المشروحة، كما أننا لم نترجم للأعلام حتى لا نشغل القارئ بأى أمر يصرفه عن تأمل القصة أو الحكاية والاستمتاع بها .

(حـ) حاولنا - قدر الإمكان - أن تكون القصص والحكايات متنوعة تغطى مختلف مناحى القول فى البخل والبخلاء من حرص على الطعام إلى أساليبهم فى التعامل مع الناس إلى وصاياهم لأبنائهم إلى موقفهم من متقديهم إلى فلسفة البخل من وجهة نظرهم وكأننا أردنا أن يقدم البخلاء أنفسهم للقارئ الكريم من خلال هذه النصوص المتنوعة .

(٧)

المؤتمر العام للبخلاء وقصة معاذ العنبرية

وأول نص اخترناه للجاحظ عن أصحابه من المسجدين كما أسماهم، وهو نص طويل أداره الجاحظ على شكل مؤتمر عام للبخلاء لتدارس أمور البخل والتواصى به والدعوة إلى الاقتصاد والجمع والمنع كما كانوا يسمونه.

وقد مهد الجاحظ للحديث بمقدمة جميلة على شكل رواية حيث قال: قال أصحابنا من المسجدين فهم أولاً أصحابه وذلك أمر معروف من تاريخ الجاحظ ونشأته الفقيرة.

ولعل هذه الصحبة هي التي مكنت الجاحظ من الحديث عن البخلاء عن معاشة واقعية لهم وسبر لأغوارهم ومرصد لحججهم وأدلتهم وتحليل لنفسياتهم وسخرية ظاهرة أو مبطنة منهم.

والمسجديون طائفة من الفقراء وبعض البخلاء التي كانت تلامر مساجد البصرة وتتخذها ميداناً للدرس والمذاكرة. ولذلك فقد أبدع الجاحظ في اختيار المكان المؤثر ألا وهو المسجد، والمسجد لا يكون إلا للأعمال الجليلة، ومدارسة أمر البخل من عظام الأمور عند البخلاء.

ثم تأتي العبارة الثانية (من يتبخل الاقتصاد فى النفقة والتخير للمال من أصحاب الجمع والمنع) وكأن الجاحظ هنا يورد مصطلحات البخلاء ليسخر منهم أو كأنه يريد أن ينقلنا إلى الجو العام للمؤتمر فهؤلاء البخلاء كأنهم من خبراء المال والاقتصاد فى عصره، وهم فى الغالب كذلك فهذه الطبقة الاجتماعية التى يتحدث عنها الجاحظ هى طبقة الأثرياء المقترين الذين جمعوا المال ونموه عن طريق البخل أو الاقتصاد فى النفقة كما يسمون البخل، وهم أصحاب الاستثمارات المالية التى تعود عليهم بالنفع والمزيد من الذهب والفضة وهم أصحاب الجمع الذين لا يكلون ليلاً ولا نهاراً من السعى فى طلبه والتماسه بكل الطرق والوسائل المشروعة وغير المشروعة، وهم أصحاب المنع الذين يبخلون بالمال فلا ينفقونه، وسيرد فى الاختيارات أمثلة كثيرة على ذلك.

وبعد هذا التمهيد الممتع الجميل، وبعد أن أصبحنا مهئين لحضور المؤتمر، بدأ المتحدثون من البخلاء فى تقديم تجاربهم وخبراتهم ليستفيد كل من تجربة أخيه.

وكان أول المتحدثين شيخ كبير عرض تجربته فى الاقتصاد فى استهلاك المياه، ثم تحدث شيخ آخر عن حريم الصناعات وكيف جمعت جهاز ابتهاج، ثم تحدث شيخ آخر عن تجربته مع النخالة، ثم وصلنا إلى النص الذى اخترناه وهو قصة معاذة العنبرية.

ويلحظ القارىء أن الرجال يتحدثون عن تجاربهم لكن العنصر النسائي له تجاربه فى ميدان الجمع والمنع والاقتصاد، وهنا يتولى الشيوخ عرض التجارب النسائية كما روى الشيخ قصة حريم الصنّاع وكما روى الآخر قصة معادة العنبرية .

وقصة معادة العنبرية تجربة حية فى مجال الاقتصاد المنزلى ، وكيف يمكن للمرأة العاقلة المدبرة أن تستفيد من كل شىء فى موضعه المناسب وأن تتجنب الإسراف والتبذير والتفريط فى الأشياء .

جاء عيد الأضحى وأهدى لمعادة شاة لتذبحها فى العيد وهذا أمر يدعو إلى الفرح والسرور لكن معادة كانت كئيبة حزينة .

ولماذا هذ الحزن والإطراق والتفكير؟!

هذه أول تجربة لها بعد فقد زوجها الخبير المدبر .

فماذا ستصنع بالشاة وأجزائها وصوفها وجلدها ودمها وفرثها وعظمها؟!

لقد ذهب الدين كانوا يدبرون هذا الأمر ويقومون بحقه!

ولكن ماذا عليك يا معادة لو ضاع من الشاة القليل القليل؟

تجيب على ذلك بحكمة وتدبر لست أخاف من تضييع القليل إلا

أنه يجر إلى تضييع الكثير

إذن فهذا الوجل والاضطراب والخيرة له ما يبرره!!

فالأشياء لا تقاس وتقدر بأعيانها وإنما ينتج عنها ويترتب عليها .
وبعد ذلك بدأت المرأة تعرض علينا أوجه الانتفاع بكل جزء من
أجزاء الشاة ولم تدع شيئاً إلا وذكرت استعماله .
لكنها توقفت أمام أمر جلل ألا وهو دم الخروف ، وهل تلقيه فى
الزبالة أو أن هناك وسيلة للانتفاع به .
منطقها يقول : كل شىء له فائدة .
لكنها لم تصل بعد إلى فائدة الدم .
وأخيراً فتح الله عليها وألهمها حسن التدبير بعد طول التفكير
وعرفت كيف تستخدم الدم فى طلاء القدور المخزنة عندها .
وتخزين القدر أمر ينسجم مع البخل ولذلك فقدورها الشامية جدد
لم تستعمل .
وإذا كان منطق الشعراء هو المدح بكثرة الرماد وسعة القدور وكثرة
استعمالها فإن منطق البخل والبخلاء يختلف عن ذلك فقدور معاذة
جديدة لم تستعمل .
وعند هذه النقطة يظن القارئ أن القصة قد انتهت ؛ ولكن الجاحظ
الكاتب القدير يفاجئه بذيول القصة فالراوى يقول : إنه لقى معاذة بعد
سته أشهر وهى مدة طويلة كافية لأكل الشاة فيسأل عن القديد وهو
اللحم المجفف ، ويتبادر إلى ذهننا أن الجواب : لقد انتهى كل شىء .

لكن الأمر مع هذه المرأة المدبرة المقتصدة مختلف جداً .

لم يحن أكل القديد بعد .

ولا ندرى متى يحين؟ لكننا نقول: لكل شيء إبان ووقت مناسب أما الأشهر الستة الماضية فقد تنعمت فيها معاذة بأكل لشحم والإلية والجنوب والعظم المعرق .

وبعد عرض التجارب جاء وقت الحكم والتقويم .

فقبض صاحب الحمار والماء قبضة من حصى أسفاً وندماً على ما فرط؟!

ثم جاءت الخاتمة :

قال: لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين .

يا لها من عبارة عظيمة تدل على عظمة الجاحظ وقدراته على الإبداع والتصوير؛ صاحب الحمار وصاحب الماء من المسرفين .

إنها نسبة الأشياء والأفعال .

وهكذا تدرج بنا الجاحظ من بخيل إلى أبخل منه .

فجمع لنا بين الإمتاع والفائدة .

وجعلنا نضحك مع البخلاء .

ونضحك من البخلاء ونسخر من تصرفاتهم .

(٨)

مشكلة تأجير العقارات

ويتحدث النص الثانى عن مشكلة أزلية هى العلاقة بين المؤجر والمستأجر، وبطل القصة هو الكندى، ولا ندرى هل هو الكندى الفيلسوف المشهور أم كندى آخر من أصحاب العقارات فى البصرة، لكن الذى عرفه من خلال النص الذى كتبه الجاحظ وأداره على لسانه أنه صاحب أملاك وعقار، وأنه شخص بخيل لكنه ظريف، وهذا نموذج حى من نماذج الجاحظ التى تجمع بين المتناقضات كالبخل والظرف وخفة الدم.

ولو استعرضنا نظام التأجير الذى ابتدعه الكندى لرأينا عجباً وكل ما نتمناه ألا يقع هذا النص فى أيدي الملاك وأصحاب المكاتب العقارية فيزيدون من تكبيل المستأجر المسكين بشروطهم الجائرة.

وفى النص جدال بين المؤجر والمستأجر وحوار ساخن حول حقوق الطرفين، وقد أدلى كل طرف بحججه وقد أبدع الكندى، وإن شئت الدقة فقل أبدع الجاحظ على لسان الكندى فى عرض وجهة نظر أصحاب العقار حتى كدنا نقتنع بحججهم وآرائهم ومنطقهم ونسبنا العلاقة غير الحميمة بين الطرفين ونحن نستمتع بصياغة الجاحظ للقضية.

والقصة - بالإضافة إلى ماسبق - تمثل نموذجاً للبخل الذي يعتمد على الحجاج والجدال في تفسير تصرفاته الغريبة وطلباته العجيبة.

(٩)

نفسيات البخلاء

ونعود إلى النص الثالث قلبلاً عند صياغة الخطيب البغدادي للخبر، وكيف تأثر في هذا الفن بالجاحظ الرائد الأول لرسم شخصيات البخلاء وتحليل نفسياتهم في الأدب العربي وللنظر إلى قوله: فجعلت امرأته وبناته وجاراته يتطلعن من فروج الأبواب والسطوح إلى الضيف وأكله ويقولون: ويلكم جاء الضيف؟! وكأن الضيف شخص عجيب غريب يرويه لأول مرة.

وقد جاءت خاتمة القصة حميدة طيبة عندما تغيرت طباع الطوسي وأصبح كريماً أو كما قال الخطيب: لا يمر به ضيف إلا قراه.

(١٠)

هل للبخل وطن؟

هل للبخل وطن؟!

هل يمكن أن نحكم على عامة أهل بلد بالبخل أو بالكرم؟

المنطق يرفض ذلك، ففي كل بلد كرماء وبخلاء.

لكن بعض البلدان اشتهر أهلوها بالبخل، أو شهرهم الأدباء بذلك وجنوا عليهم.

ومن تلك البلدان إقليم خراسان بصفة عامة ومدينة مرو بصفة خاصة، فقد وجه إليهم الجاحظ سهام نقده ولاذع أسلوبه، وروى في كتاب (البخلاء) الشيء الكثير والعجيب عن بخل الخراسانيين والمراوزة.

والنص الثالث من المختارات كتبه الخطيب البغدادي عن بخل أهل طوس وكيف كانوا يتهربون من إكرام الضيف بل إنهم لا يعرفون معنى الضيافة.

والنص السادس كتبه الجاحظ عن بخل الخراسانيين، وكيف أنهم قد قننوا البخل ووضعوا له الأنظمة واللوائح والأحكام.

ونلتقى بالجاحظ في النص التاسع وهو يتحدث عن بخل أهل مرو.

واقراً إن شئت النص العاشر لتتعرف على نموذج آخر من نماذج البخل، وقد امتد تأثير اتهام أهل إقليم بعينه بالبخل إلى الأدب الشعبي وإلى الأمثال الفصيحة والشعبية وأغلب الاتهامات إنما تكون بين البلدان المتجاورة.

وقد ذكر الدارسون أن الجاحظ قد ركز في كتابه البخلاء على بخل

أهل مرو وخراسان دفاعًا عن العرب ضد هجمات الشعوبيين من
الفرس الذين نفوا عن العرب صفة الكرم. فبنى الجاحظ كتابه على
إثبات الكرم العربى، والحديث عن أصناف الطعام عند العرب فى
نهاية الكتاب، وأكثر من التندر على الخراسانيين وأهل مرو.

(١١)

التقتير وحب الأكل صفة لازمة للبخل

ويجمع البخل بين البخل والتقتير وحب الأكل واشتهاء اللحم
لكنهم يأكلون بشراهة ونهم عندما يدعون إلى موائد الكرماء، أما فى
بيوتهم فلهم مع اللحم والإدام شأن آخر وهذا ما يتحدث عنه النص
الرابع الذى يتحدث فيه البخيل عن أكل لحم الرأس وما ذلك إلا لأنه
رخيص الثمن، ومع ذلك، فإن البخيل يذكر له من الفوائد ما يرغب
الناس فيه أو بتعبير أدق ما يزين أكله عند البخيل نفسه.

وقد أورد الثورى فى هذا النص الفوائد الكثيرة للحم الرأس.
ويلحق بهذا ما ورد بشأن الرؤوس فى النصوص الأخرى.

(١٢)

عشق المال والتغنى به

والبخيل عاشق للمال لا يعدل به شيء لذلك رأيناه في النص
الخامس يخاطبه ويلاحقه ويناجيه ويطمئنه إلى أنه لن يخرج من كيسه
أبداً.

وهذا المعنى تطرق إليه البخلاء كثيراً وتفننوا في التعبير عنه
وتأصيله في نفوس أبنائهم كما نجد في النص العشرين وفيه يطلب
الابن من أبيه درهماً واحداً ليأكل به هو وأصحابه، ولكن الأب ينهره
ويبكته ويحكي له قصة الدرهم منذ أن كان في بطن الأرض معدناً
حتى وصل إليه.

(١٣)

هل تورث صفة البخل؟

ويعالج النص السابع قضية مهمة تتعلق بتوارث الصفات والطباع
والعادات، ومن المعروف أن قانون الوراثة يسرى على الصفات الخلقية

الحسنة، أما الأخلاق فتكتسب ولكنها دون شك تخضع لقانون آخر هو قانون التأثير والاقتداء، ولذلك اكتسبت المرأة الأولى فى هذا النص الطباع الحسنة من كرم وبشاشة من أسرتها وكانت شبيهة بأخيها، أما المرأة الثانية فقد اكتسبت أيضا الصفات الذميمة من بخل وشراسة من أسرتها فكانت شبيهة بأخيها أيضا وجمال القصة فى تداخل العلاقات والمفارقة بين صفات الزوجين والزوجتين.

وإلى هذه القضية يشير مضمون النص (التاسع) فهذا الغلام الصغير الذى عاش فى بيئة بخيلة أصبح بخيلاً بالتأثر والعدوى لكن الأمر فى ذلك ليس ضربة لازب فرمما أنجب البخيل كريماً وربما خلف الكريم بخيلاً، والله فى خلقه وأخلاقهم شئون وشئون.

(١٤)

استغلال الدين والعبادات من قبل البخلاء

وقد يستغل البخيل الدين والعبادة وبعض الأحكام الشرعية لصالحه ولحماية نفسه وماله - كما يتوهم - من طمع الطامعين.

فهذا البخيل (النص الثامن) يلزم جلساءه أن يحلفوا بالله أنهم قد شبعوا ويتوصل إلى ذلك بحيل وأساليب ملتوية، وبعد أن يتم له ذلك بأكل قرير العين آمناً على طعامه وشرابه فالذى أقسم اليمين أنه

قد شبع فى بيته لا يمكن أن يمد يده إلى الطعام وإلا لكان حائثاً فى
يمينه وهكذا استغل البخيل الحلف .

وهذا بخيل آخر (النص الثلاثون) يريد أن يتعاقد مع فقير على
خدمته ولا يريد أن يدفع له عوضاً مقابل ذلك وإنما يكتفى بتأمين
أكله وشربه ، وياله من أكل يأتى من بخيل ، وعندما وافق المسكين
مضطراً عاد البخيل إلى المساومة وطلب التخفيض ؛ وماذا يستطيع
المسكين أن يخفض ؟ والبخيل لم يدفع له شيئاً لكن الحاجة هدته إلى
ما يرضى البخيل فقال : أصوم الاثنين والخميس وصيام الاثنين
والخميس سنة لكن البخيل لا ينظر إلى الصيام من هذه الزاوية وإنما
ينظر إليه من زاوية الاقتصاد فى النفقة ؛ ولذلك فرح بهذا العرض
واستغل الصيام للتوفير .

(١٥)

نكران الجميل

ويكشف لنا (النص العاشر) عن صفة ذميمة من صفات البخلاء
وهى نكران الجميل . فهذا البخيل المروى يستغل شهامة العراقى
وصداقته له فينزل عنده مرارا وتكراراً معزراً مكرماً ، وعندما يحين
وقت الوفاء ورد المعروف والقيام بحقوق الصداقة يتنكر لذلك ،
ويدعى أنه لا يعرف العراقى ويحاول هذا الرجل الكريم أن يعرفه

بنفسه وأن يجد له عذراً في تغير اللباس ووعشاء السفر لكن البخيل يحسم الأمر بكلمته الخاتمة: لو خرجت من جلدك لم أعرفك، فعليك أن ترحل، وعلينا أن نأخذ العبرة من الحدث فلا نضع المعروف في غير أهله.

والحكايات من هذا النوع كثيرة وهي تدل على أخلاق البخل ونكرانهم للجميل.

(١٦)

فوائد الضحك

أما قصة محفوظ النقاش مع الجاحظ (النص الحادي عشر) قصة عجيبة؛ فالنقاش صديق للجاحظ وقد خرجا من المسجد معاً فخالف النقاش طبعه ودعا الجاحظ إلى داره وأنى للجاحظ الخبير بالبخل أن يخدع بهذه الدعوة لكنه أراد أن يقف على نموذج عملي متجسد للبخل فقبل الدعوة، ثم عاد البخيل إلى طبعه فماتل وراوغ وحاور الجاحظ ليردعه عن جريمة أكل مال البخيل، لكن الجاحظ يجد لذة لا تعدلها لذة في ذلك فيقدم على الأكل وهو مستغرق في الضحك، ثم يعلق الجاحظ على الحدث تعليق الخبير بتأثير الضحك والسرور فيقول:

ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور
فيما أظن .

وهذا فهم دقيق من الجاحظ لأثر الضحك على الصحة .
ويختم القصة بحديث علمي دقيق عن الضحك الجماعي
والضحك الفردي فيقول: ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على
شطر مشاركة الأصحاب .

(١٧)

فلسفة البخل

ويتضمن (النص الثاني عشر) حواراً حول فلسفة البخل وتعليقات
البخلاء . فالخزامي يرضى ويستهج أن يقال عنه: إنه بخيل وعندما
حاوره وناظره صاحبه في ذلك قال: لا يقال عن الشخص بخيل إلا
وهو ذو مال ويكفيني أن أكون ذا مال، وليقل الناس ما يقولون، لكن
المحاور حاول إفحامه وإلجأه فقال: إن السخى يجمع بين المال
وحسن الذكر، بينما البخيل يجمع بين المال وسوء الذكر . . .

ويبدو للوهلة الأولى أن صاحبنا البخيل قد هزم في هذه المحاورة
لكنه بخيل وفيلسوف، ولذلك عاد إلى تحليل الموضوع وتقليبه وانتهى
إلى أنه لا يقال بخيل إلا ويعنى ذلك ثبات المال واستقراره في ملكه

لكن السخاء خطر على المال والمهم عنده هو المال ودوامه واستقراره، أما أن يحمّد ويفقد المال فذلك هو الخسران المبين وما درى ذلك البخيل أنه قد يفقد المال والحمد معاً، وقد يثبت للكريم السخى المال والحمد معاً ولكن أنى لهذا البخيل أن ينظر إلى معالى الأمور ومكارم الأخلاق.

ومن فلسفة البخلاء ما ورد فى النص الثامن والعشرين حول فضل الوحدة وعدم الاختلاط بالناس، وأن الوحدة هى الأصل والقاعدة ولذلك فأكل البخيل وحده يجرى على هذا القياس، ومن أراد مؤاكلة الناس ودعوتهم فقد خالف الأصل وعلبه بالدليل.

(١٨)

التحذير من البخل

أما النص الثالث عشر فهو نص مباشر فى التحذير من البخل وهو فى الحقيقة لا يعبر عن رأى البخلاء وإنما عن الرأى المضاد لهم، فيه كشف وتعرية لهم، وقد اخترناه مع نصوص البخلاء مع أنه فى التحذير عن البخل ليقف القارئ الكريم على رأى صريح فى ذم البخل كتبه شخص استشير من قبل أحد أصحابه فى طلب العون من رئيس بخيل فجاء الرد قوياً مجلجلاً فى التحذير من ذلك وتضمن

النص شيئاً من المبالغات والتحامل على البخلاء لكنه نص جيد ذو فائدة وتأثير قوى فى التحذير من تلك الفئة وتعريفهم والكشف عن مغالطاتهم.

(١٩)

المخاطرة بالبخل

وإذا كان بعض البخلاء يغالط ويدعى أن ما به من بخل إنما هو اقتصاد وحسن تدبير، فإن بعضهم كان يفاخر ببخله ويجاهر به، ويتمنى أن يعرفه الناس بهذه الصفة حتى يكفوا عن رجاء ما عنده وحتى يسلم من مضايقتهم له بطلب العطاء.

فهذا محمد بن الجهم (النص الخامس عشر) يقول: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الشعراء وعشرة من الخطباء وعشرة من الأدباء تواطئوا على ذمى حتى ينتشر ذلك عنهم فى الآفاق حتى لا يمتد إلى أمل أمل ولا ينبسط نحوى رجاء راج.

فهذا الرجل يريد قطع حبل الرجاء والأمل وما يفيد ذلك إذا كان سيمنع عنه طلاب الرغد والمساعدة والطامعين فى شرابه وطعامه.

وقبل محمد بن الجهم قال الحزامى (النص الثانى عشر) لا أعدمنى الله هذا الاسم وفلسف ذلك وأورد عليه الحجج والبراهين.

(٢٠)

التربية عند البخلاء

ويتبارى البخلاء فى تربية أولادهم على البخل والتقتير، ويعجبون بأكثرهم بخلًا مما يدل على نجاح الأب فى التربية فهذا البخيل (النص السادس عشر) بعد أن أكل اللحم ولم يبق إلا العظم وقد اشترأت أعناق أولاده إلى هذا العظم، كل يطمع إلى نيله والفوز به ولكن ذلك لن يتحقق إلا بعد مباراة وامتحان عصيب، ولذلك وجه سؤالاً واحداً إلى أبنائه الثلاثة هو من يحسن وصف أكل هذه العظام؟

وبدا بالابن الأكبر لكبر سنة ولأنه يتوقع إجابته الجواب من طول الخلطة والمعاشرة ولما مرّ به من مشاهد ومواقف تعلمه البخل وتجعله يبدع فى الجواب، لكن الابن الأكبر فشل فى الامتحان حيث أجاب بقوله: آكله حتى لا أدع لذرة فيه مقيلاً.

وهنا انتقل السؤال إلى الابن الأوسط فكانت إجابته أدل على البخل من الأكبر لكنها لا ترضى طموح الأب فى أن يكون أبنائوه أبخل منه قال الابن الأوسط: آكله حتى لا يدرى ألعامه هو أم لعام أول.

وهنا تصدى الابن الأصغر للجواب وجاء بكلمة الفصل فى هذه المشكلة فقال: أدقه دقاً وأجعل إدامه المخ.

ورضى الأب عن جوابه وسلم إليه العظم وقال هو لك .
ونحن نقول إن الابن يستحق الهدية الثمينة ، فقد بلغ فى الفقر
وفلسفته شأواً تفوق فيه على والده الخبير المجرب .

(٢١)

التظاهر بالكرم

وكثير من البخلاء يشعر بالنقص ولذلك تراه يمارس بعض الأعمال
التي توهم الآخرين بأنه كريم ، فيلقى أمام منزله بعض المخلفات
الدالة على الكرم كما فعل صاحبنا (النص الثانى والعشرون) عندما
وضع عظام الرأس أمام داره يتجمل بها أمام جيرانه كما قال ولكنه
كان يسكن فى حىّ أهله يغلب عليهم البخل ولذا قام جاره وهو من
طبقة يأخذ العظام ووضعتها أمام داره ليتظاهر بالكرم وإنه لحيّ ينبغى
للكريم أن يرتحل منه قبل أن تصيبه العدوى ويصبح من البخلاء .

(٢٢)

آباء وأبناء

علاقة الآباء بالأبناء تقوم على العطف والرحمة وحسن التربية ،
وعلاقة الأبناء بآبائهم تقوم على البر والصلة والعطف والرعاية ، لكن

القصص التى معنا تدل على إفساد البخل لتلك العلاقة، فعندما يتعرض المال لخطر الإنفاق أو هكذا يتصور البخل فلا مجال عنده للعطف والرحمة ولا للوفاء والتقدير.

فهذا الأب (النص الرابع والعشرون) لا يود أن يهضم أبناؤه الطعام هنيئاً مريئاً، بل يتمنى عكس ذلك حتى يسلم - أو هكذا يتوهم - من إطعامهم فى اليوم التالى، فقد لحظ الضيف أن الأب يقوم من الليل ويقلب أبناءه على الجنب الأيمن، وعندما سأل عن ذلك ذكر له سبباً لا يخطر إلا على بال البخلاء، فهو يخشى أنهم إذا ناموا على الجنب الأيسر فسيهضمون طعامه وهو لا يريد ذلك، ولذا فقد قلبهم على الجنب الأيمن كي لا يهضموا الطعام، وأين هذا الأب من أولئك الآباء الرحماء الذين يبحثون لأبنائهم عن الشراب الهاضم للأكل لكنه مرض البخل يفعل بأصحابه الأفاعيل حتى ولو كانوا أبناءهم.

وفى مقابل ذلك نجد الأبناء البخلاء لا يذكرون آباءهم بخير إن أحسوا أو عرفوا من أخبارهم ما يوحى بمجانية البخل وبشيء من الإنفاق فى عرف البخلاء وهو التقدير بعينه عند الكرماء، ولكن المفاهيم مختلفة عند هذه الفئة المريضة من الناس، وللنظر إلى تعليق الابن البخل (القطعة الخامسة) على حال والده واتهامه له بالإسراف، فعندما مات البخل حضر ابنه لا لتقبل العزاء وتحمل المسؤولية ولكن لإحصاء أموال الأب وضمها إلى أمواله المكنورة وهنا يسأل الابن أخواته عن طريق والده فى النفقة، وعندما قالوا له إنه

كان يتأدم بجبنة يسمح اللقمة عليها، طلب المعاينة والفحص وعندما رأى الجبنة وبها حَزٌّ من أثر أكل والده اعتبر ذلك إسرافًا وقال: لو علمت أن ذلك صنيعة وإسرافه لما صليت عليه وعندما سئل عن طريقته فى الأكل قال أضع الجبنة من بُعد وأشير إليها باللقمة!!

ونحن لا نسلم بصحة تلك القصص على سبيل اليقين، لكنها تدل على اضطراب العلاقة بين الآباء والأبناء بسبب البخل والشح وفى تصويرهم بهذه الصورة يقطع النظر عن حقيقة وقوعها تنفير من البخل لا شك فيه.

(٢٣)

نوادروطرف

وفى بعض حكايات البخلاء نوادر وطرف مائعة وهى ذات دلالات نفسية واجتماعية تساعد من يدرس نفسية البخلاء وكيف سيطر البخل على تصرفاتهم.

فهذا بخيل لا يأكل إلا فى منتصف الليل، ولك أن تسأله عن الحكمة فيجيبك جوابًا مقنعًا عند أمثاله من البخلاء ويعدد لك فوائد الأكل فى ذلك الوقت، ومنها الأمن من مفاجأة الضيوف له وهو يأكل (النص الرابع).

وهذا بخيل آخر يرد على صاحبه الذى احتج على عدم دعوته له فقال: كيف أدعوك وأنا أعرفك وأعرف طريقتك فى الأكل وربما التقينا على مائدة كريم فأنت سريع البلع وإذا أكلت لقمة هيأت أخرى

ولم يفوت صاحبه له هذه الفرية فرد عليه ردًا جميلاً لا يقدر عليه إلا أمثاله فقال: أتريد منى إذا أكلت لقمة أن أصلى ركعتين ثم أعود ثانية؟! ولو قام للصلاة لرفع البخيل الطعام؟ (النص السادس والعشرون).

وهذا بخيل ثالث له قصة ظريفة فقد دخل عليه أحد الأصدقاء وقد شارف هو ومن معه على الانتهاء من الأكل، وعندما همَّ القادم الجديد بالأكل قال له: أجهز على الجرحى ولا تتعرض للأصحاء، وكأن الأكل معركة حامية الوطيس وهو كذلك عند هؤلاء البخلاء وهمَّ البخيل الآن هو تقليل الخسائر ما أمكنه ذلك ولذا قال: أجهز على الجرحى ويريد ذلك الدجاج والفراخ الذى أكل منه، واترك الأصحاء أى الذى لم يؤكل منه أصلاً، وهكذا استخدم البخيل المصطلحات العسكرية فى مجال الأكل ويا لها من معركة؟! .

أما الرابع فقد رزقه الله بخادم أفقه منه وأعلم فى باب البخل ولعله تلقى العلم منه ثم فاق أستاذه فيه، فعندما قال السيد البخيل لغلامه: هات الطعام وأغلق الباب حتى لا يشاركنى أحد فى الأكل، أحس الغلام النابغة أن فى ترتيب الكلام خطأ فإن هو أحضر الطعام

ثم ذهب لإغلاق الباب فقد يحضر الضيف ويستغل الوقت ما بين وضع الطعام وإغلاق الباب، فتقع الكارثة على سيده وتمتد آثارها إليه ولذلك قال: يا سيدى إن منطق البخل وفقهه يقتضى أن تقول أغلق الباب أولاً ثم أحضر الطعام، فعلم السيد أن خادمه قد فاقه فى التدبير وفهم الأمور أو فى الحزم كما عبر عن ذلك عندما قال: أنت حر لعلمك بالحزم.

ولكن علينا ألا ننخدع بهذه الأريحية والكرم الذى أدى إلى عتق الغلام، فإنما هى فورة حماس وإعجاب وبعد ذلك لن يعدم البخیل وسيلة للتراجع عن عتق الغلام (النص التاسع والعشرون).

وهذا بخیل غلبه الحياء فأكل، وما ظنك ببخیل يستحى فيأكل، لابد أن يكون لذلك قصة (النص الثامن عشر) فقد ترافق شخص مع بخیل وكان هذا البخیل قد جمع إلى البخل صفة ذميمة أخرى هى الكسل والعجز والخوف من الإنفاق، فعندما طلب منه صاحبه فى السفر أن يذهب لشراء اللحم من السوق امتنع وعندما طلب منه أن يطبخ اعتذر أيضاً، وعندما حان وقت الأكل وطلب منه أن يأكل قال: والله لقد استحييت من كثرة خلافى عليك ولولا ذلك ما فعلت، ثم هجم على الأكل بنفس شهية، فقد أمن التعب والإنفاق فما عليه إن أكل وشرب من مال غيره.

أما البخیل البصرى (النص التاسع عشر) فقد أكل وأكثر من الأكل

حتى أصيب بالتخمة وعندما زاره الطبيب ووصف له دواء التخمة
رفض بشدة وقال :
الموت أهون من ذلك .

(٢٤)

الخصائص العامة لقصص البخلاء

- وإذا عدنا إلى النصوص السابقة لنستنبط منها الخصائص العامة
لقصص البخلاء وحكاياتهم فسنجد ما يلي :
- يحاول البخلاء ما أمكنهم ذلك إخفاء بخلهم وهذا اعتراف منهم
بأن البخل رذيلة .
 - إذا عجزوا عن إخفاء البخل لجئوا إلى المغالطة والتأويل وقلب
المفاهيم ، فإذا البخل اقتصاد وإذا التقدير حسن تدبير وهكذا يسمون
الأشياء بغير أسمائها .
 - إذا فشلت كل محاولاتهم في التستر والتخفى أو إذا شعروا أن في
المجاهرة بالبخل تخليصاً لهم من النفقة أو من طمع الآخرين
جاهروا بالبخل وأعلنوها صريحة أنهم بخلاء بل وفاخر بعضهم
بذلك .
 - البخلاء لا شأن لهم بالعلاقة الاجتماعية بل حياتهم تقوم على

الوحدة والانفراد والتوحش من الآخرين ، لأن فى الاجتماع بذل وإنفاق وهم غير قادرين على ذلك .

- وعلاقتهم الأسرية قائمة على التقدير والشدة والقسوة ويرون فى ذلك من حسن التربية وحماية الأولاد من البطر والإسراف .

- وفى تصرفاتهم تناقض عجيب ، فإن دعوا إلى وليمة أكلوا وأكثروا ما دام المال مال الغير ، أما إذا كان الإنفاق من جيوبهم فلذلك شأن آخر .

- يتحول البخل الشديد إلى هاجس مرضى بل وإلى خوف دائم من الفقر مما يدل على سوء الظن بالله .

- فى بعضهم ظرف وخفة دم وبخاصة عندما يجادل ويحاور فى فضيلة الاقتصاد والتوفير كما يحبون أن يطلق عليهم وعلى بخلهم .

وقد حاول أكثر الكتاب الذين اخترنا من تراثهم النصوص السابقة محاربة البخل والتنفير منه بوسائل عدة :

- فمنهم من حاول ذلك مباشرة وبأسلوب صريح فأتى بالآيات والأحاديث والمواعظ التى تحذر من البخل وتدعو إلى البذل والإنفاق .

- ومنهم من عالج هذه الرذيلة ونفر منها بأساليب غير مباشرة تعتمد على الإيحاء والتأثير غير المباشر، كأن يرسم لنا البخيل فى صورة منفردة، أو يعرض حججه بطريقة مضحكة، أو يضعه فى مواقف تدعو إلى النفور.

- ومنهم من زواج بين الأسلوبين فيأتى بالقصة ثم يعلق عليها، أو يعرض للخبر ثم يستخلص منه العبرة..

(٢٥)

دراسات متنوعة

وأخيراً فإن الكم الهائل من أخبار البخلاء وقصصهم وأشعارهم وما قيل فى ذمهم والتشهير بهم، يحتاج إلى دراسات متنوعة تشارك فيها علوم كثيرة بالإضافة إلى الدراسات الأدبية.

فعلماء النفس مجالهم الرحب فى تحليل نفسية البخلاء المريضة.

ولعلماء الاجتماع فرصتهم فى دراسة آثار البخل على العلاقات الاجتماعية ولعلماء التربية دورهم فى دراسة تأثير البيئة البخيلة على اتجاهات الأولاد. ولعلماء الاقتصاد مجال فى دراسة العلاقة بين البخل وتنمية الثروة.

أما الدراسات الأدبية فقد قالت كلمتها:
إبداعاً ونقداً وتحليلاً
وقانا الله شر البخل
وحبيب إلينا البذل والعطاء.

* * *

المصادر والمراجع

- ١- إتحاف النبلاء بأخبار الكرماء والبخلاء.
جمال الدين ابن المبرد الدمشقي الحنبلي، تحقيق يسرى عبد الغنى.
دار الكتب العلمية/ بيروت/ لندن/ ١٤١٠هـ.
- ٢- أدب الجاحظ من زاوية صحفية.
د. محمود أدهم. القاهرة/ ١٩٨٦م.
- ٣- أدب الفكاهة عند الجاحظ.
د. أحمد عبد الغفار عبيد. مكتبة السعادة / القاهرة / ط١ /
١٤٠٣هـ.
- ٤- ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ.
د. رشيدة عبد الحميد اللقاني. مطبوعات جامعة الملك سعود
بالرياض/ ط١ / ١٤١٣هـ.
- ٥- الإمتاع والمؤانسة.
لأبي حيان التوحيدي. دار مكتبة الحياة/ بيروت/ لبنان.

٦- البخلاء للجاحظ.

تحقيق طه الحاجري. دار الكاتب المصري / القاهرة / ط ١ /
١٩٤٨ م.

٧- البخلاء للجاحظ.

ضبطه وشرحه وصححه أحمد العوامري وعلى الجارم. دار الكتب
العلمية / بيروت / ١٤٠٣ هـ.

٨- البخلاء للخطيب البغدادي.

تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي وأحمد القيسي. مطبعة
العاني / بغداد.

٩- بناء النص التراثي.

د. فدوى مالطي دوجلاس. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
القاهرة / ط ١ / ١٩٨٥ م.

١٠- التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم.

للخطيب البغدادي. تحقيق د. عبد الله عبد الرحمن عسيان. دار
المدني / القاهرة / ط ١ / ١٤٠٦ هـ.

١١- الجاحظ.

لشارل بلا. ترجمة د. إبراهيم الكيلاني. دار اليقظة / دمشق /
١٩٧١ م.

١٢- رحلة التراث العربى.

د. سيد حامد النساج. دار المعارف / القاهرة / ط ٢ / ١٩٨٥ م.

١٣- سخرية الجاحظ من بخلائه.

د. محمد بركات حمدى أبو على. مكتبة الأقصى / ط ٢ /

١٤٠٢ هـ.

١٤- السخرية فى الأدب العربى.

د. نعمان أمين طه. دار التوفيقية / القاهرة / ط ١ / ١٣٩٨ هـ.

١٥- صورة بخل الجاحظ الفنية.

أحمد بن محمد أمبيريك. دار الشؤون الثقافية / بغداد.

١٦- ظاهرة الكدية فى الأدب العربى.

د. حسن إسماعيل عبد الغنى. مكتبة الزهراء / القاهرة / ط ١ /

١٤١١ هـ.

١٧- العقد الفريد.

لابن عبد ربه الأندلسى. تحقيق محمد سعيد العريان. مطبعة

الاستقامة / القاهرة / ط ٢ / ١٣٧٢ هـ.

١٨- عيون الأخبار.

ابن قتيبة الدينورى. دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان.

- ١٩- فن السخرية فى أدب الجاحظ.
- رابع العربى . ديوان المطبوعات الجامعية / الجزائر / ط ١ / ١٤٠٩هـ.
- ٢٠- فن القصص فى كتاب البخلاء.
- محمد المبارك . دار الفكر / دمشق / ط ٢ / ١٣٨٤هـ.
- ٢١- القيمة الاجتماعية والتاريخية فى كتاب البخلاء.
- صالح بن سليمان الواشمى . جمعية الثقافة والفنون / بريدة / ط ١ / ١٤٠٦هـ.
- ٢٢- المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ.
- د. محمد عويس . دار الثقافة / القاهرة / ط ١ / ١٩٧٧م.
- ٢٣- المستطرف فى كل فن مستظرف.
- شهاب الدين الأبهى . دار القلم / بيروت / لبنان / ١٤٠١هـ.
- ٢٤- مع بخلاء الجاحظ.
- فاروق سعد . دار الآفاق الجديدة / بيروت / ١٩٧٨م.
- ٢٥- من معجم الجاحظ.
- د. إبراهيم السامرائى . بغداد / ١٩٨٢م.

٢٦- نشر الدر.

للوزير الكاتب أبى سعد منصور بن الحسين الأبى . تحقيق محمد
على قرنة الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ط ١ /
١٩٨٣ م.

٢٧- النشر الفنى وأثر الجاحظ فيه.

د . عبد الحكيم بليغ . مكتبة وهبة / ط ٣ / ١٣٩٥ هـ.

٢٨- نهاية الأرب فى فنون الأدب.

شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويرى . نسخة مصورة عن
طبعة دار الكتب المصرية / سلسلة تراثنا.

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
القسم الأول	
النصوص المختارة	١٥
المؤتمر العام للبخلاء	١٦
الكندى وتأجير العقارات	١٩
بخل أهل طوس	٢٢
أكل الرءوس	٢٣
مخاطبة الدراهم	٢٥
طعام بكلام	٢٧
توارث الطباع والعادات	٢٨
استوثق من عدم الأكل بالعهود والأيمان	٢٩
بخل أهل مرو	٣٠

٣١	لو خرجت من جلدك لم أعرفك
٣٢	محفوظ النقاش
٣٤	فلسفة البخلاء
٣٥	تحذير من بخيل
٣٦	حيلة بخيل
٣٧	لا يمتد إلى أمل أمل
٣٨	البخيل وأولاده
٣٨	الطعام والسجن
٣٩	استحى فأكل
٤٠	أموت ولا أتقياً
٤١	لا تمس الدرهم إلا بثوب
٤٢	فوائد الرءوس
٤٣	يتجمل بالطعام أمام داره
٤٤	يأكل في منتصف الليل
٤٤	يقلب صبيانه وهم نيام
٤٥	أجهزوا على الجرحى
٤٥	أصلى ركعتين بين لقمة وأخرى
٤٦	المصباح
٤٦	الوحدة

٤٧	أغلق الباب وأت بالطعام
٤٨	أصوم الاثنين والخميس
٤٨	أقصوصة شعرية
	القسم الثانى
٥١	الدراسة
٥٢	البخل فى الكتاب والسنة
٥٢	البخل فى التراث العربى
٥٤	البخل فى الأدب العربى الحديث
٥٥	البخل فى الآداب العالمية
٥٥	عرض لأشهر المؤلفات فى البخل والبخلاء
٥٨	أسس اختيار النصوص
٦١	المؤتمر العام للبخلاء وقصة معاذ العنبرية
٦٦	مشكلة تأجير العقارات
٦٧	نفسيات البخلاء
٦٧	هل للبخل وطن؟
٦٩	التقدير وحب الأكل صفة لازمة للبخلاء
٧٠	عشق المال والتغنى به
٧٠	هل تورث صفة البخل؟
٧١	استغلال الدين والعبادات من قبل البخلاء

للمصوص ودراسة

ولم يكتف الدكتور الربيع بذلك، بل قدم لنا في القسم الأول نماذج من نواذر البخلاء، ضبطها، وشرح غامضها وأحالها إلى مصادرها الأصلية، وأخيرا حللها وأشار إلى دلالاتها المضمونية والفنية في نهاية الكتاب. وبذلك أصبح القارئ أمام نماذج، معتمدة وأصلية، تمثل هذا الجنس الأدبي، وتدفعه إلى اكتشاف مصطلحاته الخاصة، وإلى إرساء دعائمه كفن مستقل، ليس هو القصة القصيرة، ولا المقالة النقدية، ولكنه فقط هو النادرة العربية.

الناشرة : أ. شامخ سبيوية المصري - (لجنة القومية - مدينة مصر)
من بـ ٢٣ يناير (ما) ١٩٧٤ - ١ - ١٧٢٨٩ - هاتف : ١٠٧٥٦٧ (٦-١)
مطبعة : من بـ ١٦ - ٨ - ١٧٢٨٩ - ٢٥٥٥٩٩ - هاتف : ٨١٧٧٣٢ - ٨١٧٧٣٥ (٦-١)